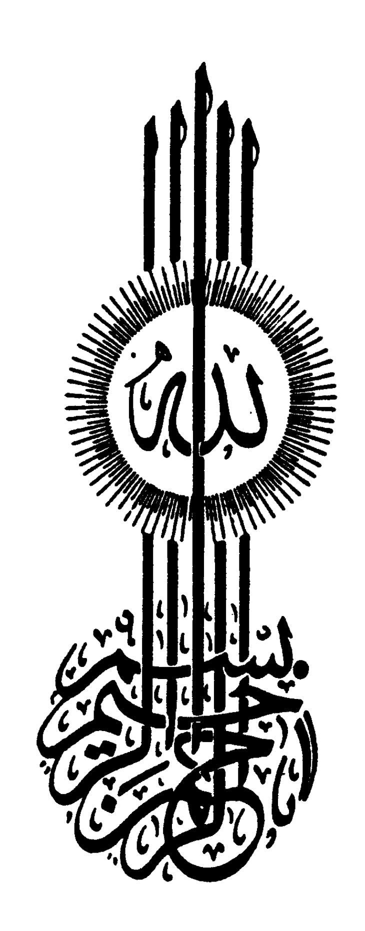
قلبي وما يـهوى

د / رشيدة مهران



عندما نريـد ...
فلابد أن نستطيع

د. رشيدة مهران



(١)

الساعة تدق الثانية صباحا . قميص النوم الوردى ينسدل على الجسد الرائع الممدد فى استرخاء على المقعد المريح فى شرفة نوم الدكتورة « رشا » .

الليل هادىء والنسمة منعشة .. والخضرة تكتنف المكان حيث تطل الشرفة على حديقة القيلا الفاخرة التى تعيش فيها « رشا » .. ويتعطر الجو برائحة الياسمين .

يدللونها باسم « شوشو » .. وهى تكاد ألا تعرف نفسها إلا بهذا الاسم . يبدو ملائما لها أكثر من اسم الدكتورة !

إن الذى يسمع اسم الدكتورة « رشا مراد » .. لا يستطيع أن يتصور انه لإنسانة جميلة .. ثائرة الأنوثة خمرية اللون كستنائية الشعر ينسدل حريرا على كتفيها .. لها عيون ناطقة ورموش كثيفة .. وفم جميل !

فقد تعود الناس أن من تحمل ألقابا علمية لابد وأن تكون مضطرة لذلك !. لان المرأة — كما يعتقدون — تدخل فى عملية استبدال تعوضها نقصا تشعر به !. فلابد للمرأة غير الجميلة من شىء يجمّلها أو يحسن صورتها فى عيون الناس .. وليكن العلم مثلا .

أما أن تكون جميلة ومتعلمة وناجحة وحريصة أن تنال ألقابا علمية .. فهذا أمر غير طبيعى فى رأى الناس !

النوم استعصى على « رشا » شأنها فى كل ليلة . حقيقة أنها دائما قليلة النوم مما يجعلها دائما تستغل الوقت فى القراءة والكتابة .. ولكنها الآن عازفة عن أى شىء .. عازفة حتى عن سماع الموسيقى التى كانت دائما تملأ بها وقتها .

فهى عائدة من السفر منذ وقت قصير بعد أن أنهت دراستها فى لندن وحصلت على شهادة الدكتوراه فى الكيمياء . وعملت ستة أشهر فى مصانع لندن على سبيل التمرين فى هذا الميدان .

وعلى ذلك لم تحس فى نفسها رغبة فى مزيد من الاطلاع فى وقتها هذا .

فقد عادت إلى بلدها .. إلى بلاد الشمس والدفء والعواطف الحارة !

عادت إلى بيتها واستقرارها .. ومشاعرها الدفينة .. عادت إلى الأرض التى يعيش فوقها « ماجد » .

آه لكم حيرتها مشاعرها تجاهه . مشاعر يمكن أن يقال عنها إنها متضاربة . مزيج من الرغبة والرفض والعناد والاعجاب والانبهار .. والحب !

كلما رأته أو خطر ببالها ثارت بها كل هذه الأشياء !.. لم تستطع تماما أن تحدد ما بها منه !!.. إنها لم تفكر أبدا فى رجل كما تفكر به . كل الرجال فى جانب وهو وحده فى جانب آخر ! فله وحده القدرة على التأثير القوى عليها .

إنها لا تستطيع أن تنسى أو تتجاهل هذه الرعشة أو الانتفاضة التى تتملك كيانها كله حين تراه . شعور غريب تحسه أمامه هو فقط !

إحساس بأنها أنثى .. أنثى بحق .. أمام رجل .. رجل بحق !!.. شعور لا يحدث لها أبدا أمام أى رجل آخر . بل إنها — رغم مظهرها الأنثوى — ماتت فيها مشاعر الأنثى نتيجة الظروف التى وُضعت فيها .

ومع كل هذا .. ومع كل ما تشعر به رفضت عرضه للزواج منها ؟!!. ولكنها حقيقة الآن نادمة !

تتمنى لو أن الزمن رجع ثانية ، وأعاد لها تلك اللحظة التى عرض فيها عليها الزواج .

لا تعرف لماذا رفضته ؟.. كل ما تعرفه انها واجهت طلبه هذا بشعور عجيب من العناد والمكابرة !

أرادت أن تثبت لنفسها انها أكبر من كل ما يثور فى داخلها بسببه . هى أكثر من مجرد امرأة .. هى محط أمل أبيها ومنتهى أمنياته ..

هى إمرأة من طراز خاص .. ترحل فى سبيل مكانة علمية إلى بلاد غريبة وتعيش فى مجتمع مختلف وتواجه مشاق الغربة وصعاب التعايش مع حياة منفتحة .

هى لن تخسر كل هذا من أجل رجل يعرض الزواج مهما إرتعش قلبها وحسها أمامه !

إنها الآن ترتعش داخليا لمجرد الذكرى !

إنها حقا تريده !!.. كيف يسقط كل العناد .. وكل المكابرة ؟!. كيف تشعر الآن أنها على استعداد أن تمزق هذه الدكتوراه تحت قدميه على أن يعود إليها ؟!.

لقد وصلت إلى كل ما كانت تتمناه .. ولكن هناك مارد جبار يملأ كيانها مارد جبار يطالبها بأشياء كانت غائبة عنها وحاولت دائما أن تخمدها بل تميتها فيها !

كل خلية فيها تطلب « ماجد » .. إنها تريده هو وحده ومن دون كل الرجال ! فهى لا تنسى أبداً إرتعاشتها الأولى أمامه حين خرجت من المدرسة الداخلية التى قضت بها بعض سنوات بعد وفاة أمها . حيث وجدت مظاهر الاحتفال فى الڤيلا ووالدها يخبرها بأنه يقيم احتفالا لتكريم ابن أخيه بمناسبة عودته من أوربا بعد إتمام دراسته بنجاح .

كانت صغيرة فى حوالى الخامسة عشر .. تنسدل ضفيرتاها حول وجهها الأسمر الجميل وفقا لأوامر مدرسة الراهبات التى تدرس وتعيش فيها فى الداخلية .

كانت لا تعرف عنه شيئا سوى ما تسمعه عنه وعلى فترات متباعدة . كانوا يطلقون عليه فى العائلة اسم « ميجور » .. هذا لقوة شخصيته وسيطرته منذ صغره على غيره من الأولاد .

وفى هذا اليوم استخفها شعور الأنس لوجود الضيوف بالمنزل والزينة والزهور . وقد تعودت أن تقضى معظم أوقاتها وحدها مع مربيتها فقط .. والتى تفتحت عليها عيناها بعد فقد أمها .. ووالدها فى حالة إنشغال دائم .

سألت : داده .. هل « ميجور » هذا كبير عملاق يستحق رتبة الميجور بحق ؟.

— والله ياشوشو أنا لم أره منذ سنوات .. ولكننى أذكره جيدا . وهو يستحق لقب أمير أيضاً .. فليس هناك من يضاهيه جمالا ولا مظهرا ولا رجولة . إنه أمير بن أمراء .. وله ثروة كبيرة وأصل كريم .. ربنا يجعله من نصيبك ياشوشو !

حملقت شوشو فى وجه مربيتها وهى تعجب لهذه المقولة الأخيرة !. ومع أبيها ومربيتها وقفت تستقبل الضيوف .

أقبل « ميجور » فى جمع من أهله .. همست رشا لنفسها :

— حقيقى بِرِنْس .. كم كنت أفضل لو رأيته قادما على فرس أبيض وعلى كتفيه عباءة مخملية وفى يديه قفاز من الجلد كما كان يرتدى فرسان العصور الوسطى !

إرتفع صوت أبيها : أهلا ميجور الحمد لله على السلامة ..

تقدمت إليه وهى تقول : أهلا ميجور الحمد لله على السلامة . ضحك لها ميجور وأمسك بضفيرتها وهو يقول :

— إسمى « ماجد » يارشا .. أليس كذلك ياعماه ؟.. كم أتمنى لو تنسون جميعا هذا الاسم الذى لا

أعرف من أين جاء .. أنا لا أحب الأشياء المستوردة .. أشعر مع هذا الاسم بأننى من الأجانب وأنا لا أحب أن أكون إلا أنا ..

قال كل هذا وهو يمسك بضفيرتها يعبث بها .. وهى مستكينة يعجبها هذا العبث اللذيذ بشعرها فى يده !.. وتحار معها دماءٌ ساخنة تندفع إلى وجنتيها !

وحين وصل بكلامه إلى هذا الحد نظر إليها مبتسما وانحنى عليها يقبلها وهو يقول : أليس كذلك يا آنستى الصغيرة ؟

انسحبت جارية إلى غرفتها .. قلبها يدق .. وكل عروقها تنبض .. لا تعرف تماما ما بها ..

هناك فى حجرتها تنظر فى المرآة تتحسس بيدها مكان قبلته على خدها تمسك ضفيرتها بيد مرتعشة .. ولا تفيق إلا على صوت المربية تقول :

— ينتظرونك على المائدة ياشوشو ..

هكذا كان لقاؤها الأول بميجور ..

عرفت بعد ذلك انه سيعيش فى الريف حيث تقع أرضه التى ينوى أن يقيم عليها عددا من المشاريع الكبيرة التى يستفيد فيها من دراسته الحديثة .

وتسأل والدها يوما :

ــ كيف سيعيش ميجور فى الريف وهو خريج جامعات أوربا يا أبى ؟.

ــ « ماجد » ياحبيبتى شخصية سَوِيّة يضع الأمور فى مكانها الصحيح . فإقامته فى الريف لا تفصل بينه وبين الحضارة .. فله بيت هنا فى القاهرة وهو سينتقل هنا وهناك . لكن إقامته الحقيقية ستكون هناك فى بيت العائلة وبجانب عمله المثمر وأرضه الخَيّرة .

عاشت « رشا » ومعها ميجور .. فى فكرها دائما .. ومعها أيضا تلك الرعشة التى أحستها للمسته فى لقائه الأول بها !

ولكن إقامتها بالمدرسة الداخلية أبعدتها كثيرا عنه وعن لقائه . وكم حكت لرفيقاتها عنه .. وخلقت حوله صورة أسطورية مبالغة . فقد كان خيالها يتدخل كثيرا فى حكاياتها .. وضخمت بخيال مراهقتها حديثها عنه لتزيد من إنفعال البنات مع قصتها !

تصفه لهن .. تزعم انه كان يرتدى ملابس تشبه ملابس الفرسان أيام البطولات .. وكيف انه حريص على وضع القفاز مع ملابس الشتاء .. ويمسك دائما بعصا أنيقة صغيرة بين يديه كما كان يفعل النبلاء قديما !

ويحلق بها خيال المراهقة حتى انها أصبحت تروى قصصا مختلقة !.. تقول مثلا إنها رأته يدخل من مدخل الحديقة الخلفى ثم يتسلق سور شرفتها .. وحين أطلت عليه جذبها بعنف وقبلها قبلة طويلة !!.

وكن البنات يسمعنها ويحلق خيالهن معها فى أحلام مراهقتهن الفائرة !!

وفى يوم عيد ميلادها السادس عشر .. أقام لها أبوها حفلا كبيرا دعا إليه كل العائلة .. ودعت هى كل صديقاتها ..

لقد أراد الأب احتفال السادسة عشر إحتفالا مختلفا لأنها السن فى رأيه التى تفصل بين الطفولة والشباب . وهو يشعر أن ابنته الآن تقف على عتبة الشباب . لذلك لابد له هنا من وقفة ليعلمها ويطلعها على ما يجب لها أن تكونه !

قال لها : ياحبيبتى سأقيم لك أكبر احتفال عرفته فى كل حياتك .. وبعده سنجلس معا نتحدث حديث الأصدقاء .. فقد كبرتِ ولى معك أحاديث أقولها لك لأول مرة ..

والآن فكى ضفائرك واستدعى الكوافير والمانكيريست .. وإرتدى ثوب الدانتيل الذى اشتريته .. فاليوم بداية الشباب لك أيتها الحبيبة .

وفى يوم الحفل تجمعت الصديقات الصغيرات تقترب منهن الرؤوس وتسرى الهمسات .. .. .. أين « ميجور » ؟

تقول واحده ليته يأتى على حصان فتتم له الصورة التى رسمتها فى خيالى له ! وتقول أخرى : لا .. ليته يأتى بالرولزرويز ينحنى أمامه السائق بينما يهبط وهو يرتدى سموكنج أسود وقميصا من الدانتيل الأبيض عالى على رقبته ويمسك بقفاز أبيض !

وقطع عليهن هذا الخيال صوت « رشا » تقول :

ـــ ها هو ميجور .. ..

وتهمس واحدة : ما هذا .. إنه يلبس بدلة عادية !!..

فتقول أخرى : ربما لا يحب أن يلفت إليه الأنظار !!..

إندفعت إليه رشا .. .. أمسك بكلتا يديها وهو يقول وهو يطيل النظر إليها :

ـــ لقد أصبَحْتِ أجمل من أن أُقبلك .. أنت اليوم فى السادسة عشر .. .. .. عروسة .. لا تدعى الرجال

الغرباء يقبلونك أبداً . لم تعودى طفلة بعد . كل ما أستطيعه أن أتمنى لك عاما سعيدا وأنا أرقص معك هذا الفالس .

وانحنى أمامها ثم أمسك يدها ووضع يده الأخرى بخفة حول وسطها وأخذ يدور بها مع النغمات !..

كيانها كله يرتعش .. .. لكم كانت تنتظر قبلته . لكنه ضَنّ بها عليها . يلف بها ويلف وصدرها يموج بعديد من الانفعالات . حاولت أن تشعره بما يضطرب بداخلها .. فتقول محاولة أن يبدو الأمر عاديا :

ــ حقيقى قل لى لماذا لم تقبلنى هذه المرة ؟.. ألَسْتُ قريبتك وهذه مناسبة سعيدة لى ؟

فيرد عليها : أنا رجل فلاح !!.. .. لى حدود أعرفها جيدا ولا أتجاوزها .. عادة التقبيل بين الرجال والنساء عادة غريبة علينا . نحن شرقيون يارشا !

إرتجفت رشا عند سماع هذا الرد الذى لم تكن تتوقعه . ولكنها أخفت إرتباكها لتقول :

ــ أنت خريج جامعات أوربا تصف نفسك بانك رجل فلاح ؟؟!!

ــ دعى أوربا على جانب ياعزيزتى . لقد كنت هناك لأدرس .. لأتعلم ثم أنتقى من مظاهر الحياة هناك ما يروقنى ويناسب مجتمعى .

لم تعجبها كلماته .. وزادت رعشة يديها .. ولاحظها .. فقال :

ــ هل أجهدتك ؟

ــ قليـلا ..

ــ إذن نتوقف .. ولتشربى كوبا من العصير يفيدك ما به من السكر .

شىء بداخلها يضايقها .. ميجور الذى ظنته ينحدر من سلالة نبلاء العصور الوسطى يقول عن نفسه فلاحا ؟!. ولا يحب اسم ميجور .. ولا يحب عادات أوربا .. لماذا ؟.. لماذا يتعمد أن يحطم أحلامها فيه ؟.. ماذا تصنع بأحاسيسها تجاهه ؟.. ماذا تصنع بكل الخيال الذى أحاطته به . ماذا تصنع بهذه الرعشة الدفينة التى تحسها أمامه ؟.. .. كيف تحتمل أن يكون مجرد رجل عادى كغيره ممن تراهم وتتعامل معهم . إنه كان أسطورة فى خيالها .. فكيف تتقبل هبوطه إلى أرض الواقع ؟.. ماذا ستفعل أمام نبضاتها واختلاجاتها أمام صورته الساحرة ؟ لابد أن تصنع بداخلها شيئا تقاوم به كل هذا . إن لها

طبيعة مُعَانِدة فلتركزها لمعاندة نفسها فيه . أجل ستعاند نفسها فيه !

« ميجور » شخص عادى . لا يتميز عن غيره إذن .. إن خيالها هو الذى ميزه وحين رأته على حقيقته وجدته شخصا عاديا .. .. لذلك لا ينبغى أن تراه متميزا ومختلفا عن الآخرين .

لقد حطم بقسوة صورة جميلة كانت ترسمها له وتتمنى أن يكونها .. .. .. إنها تكرهه . ليتها تكرهه ! ستخنق هذه الرعشة التى يثيرها فيها وإلا فستكره نفسها !!.

صوت أبيها ينتزعها من أفكارها .. ..

ـــ شوشو .. تعالى يا إبنتى .. لى معك حديث .

★ ★ ★



(٢)

إبتدأ الوالد حديثه :

ــ حبيبتى تعلمين أنك ابنتى الوحيدة . وكنت طوال حياتى أتمنى أن يرزقنى الله صبيا ــ كعادة أهل الريف ــ ولكن الله لم يحقق لى هذا الطلب .. وعوضنى بك عن كل الأمنيات .

أصبحت أنت كل عالمى ودنياى . لذلك ياحبيبتى جاء الوقت لأوضح لك الطريق الذى أتمنى أن تسيرى فيه .. فيكون لى فيك كل العزاء عن عدم وجود الولد فى حياتى .. وفقدى لأمك .. ووهب حياتى لك .

أنت ياحبيبتى الآن فى السادسة عشر ــ أتعرفين معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنك أصبحت أنثى .. أنثى كاملة . من الممكن أن تتزوجى وتحملى وتلدى أطفالا . وأنا أريد بالطبع أن تحتفظى بهذه الخاصية لمن سيتزوجك !.

أريد أن تعيشى وتمارسى كل أنواع الحرية بشرط أن تراعى الله دائما فى نفسك .. وفى جسدك ..

سأمنحك الحرية .. كل الحرية .. فتتعلمين .. تتمين تعليمك الجامعى هنا ثم تسافرين إلى الخارج لتعودين بأعلى الدرجات العلمية .

سيكون فى نجاحك نجاح لى ولأسلوبى فى الحياة . فأنت عوض عن الولد الذى كنت أريده !

ستكونين أفضل من أى ولد .. .. أتفهمين ياحبيبتى ؟.. إن عمرى لن يضيع هباءً .. لقد أنجبت بنتا بألف ولد !. سأمحو من حساباتى كل كلام الناس من حولى بأنك فتاة يجب أن أضع عليها الحدود والقيود . ذلك لأنى على ثقة مما أزرع .

ستكونين فتاة حُرة .. .. ولكنك مسئولة عن هذه الحرية أمام الله ثم أمامى .

منذ الآن ياحبيبتى أُحملك مسئولية نفسك .. وأُحدثك هذا الحديث الصريح وأثق أنك تفهمين كل ما أرمى إليه .. ..

دموع تبلل وجه « رشا » وهى تتمتم :

ــ نعم أفهم .. أفهم يا أبى .

الأب يحتضنها بحنو وهو يقول :

ــ لا تبكى ياحبيبتى فالبكاء من صفات الضعف .. وأنت قويّة .. قوية بما لك من شخصية مستقلة ونفس أبية قادرة على تحمُل المسئولية وشعورى بالثقة فيك .. وما لك من ثروة طائلة كلها لك .. تعيشين فى يسر حتى لا يكون لأى إنسان من سلطة عليك .

فأنت مستقلة تماما تسيرين أمورك بما ترينه صوابا . قفى يارشا .. قفى وإرفعى رأسك وقولى : أنا هنا .. أنا ملكة متوجة صاحبة الأمر والنهى فى قلبى وعقلى وجسدى وحياتى .. لن أكون أبدا تابعة لأحد أيّا كان .. .. .. قولى أنا الدكتورة « رشا » ابنة « مراد شريف » ربّانى أبى فأحسن تربيتى .. وسأكون على قدر المسئولية .

الأب يقول ذلك ودموعه تسيل .. .. وحين واجه نظرات « رشا » المتسائلة قال :

ــ لا تحزنى يا إبنتى .. إن دموعى فرحا بك .. فأنا أراك كما أريد تماما .. .. إقتحمى دنيا الرجال يا إبنتى وتفوقى عليهم ولك العقل والاتزان والقدرة على الصمود . والثروة والحرية ومقدرة الاختيار كأى شاب . قفى دائما على قدم المساواة مع أى رجل .. فلا أحد فيهم يَفضُلك أبدا وسأرقب كل خطواتك دون تدخل إلا عند حاجتك

لى .. .. حتى بعد موتى ستكون روحى معك دائما دائما .. ..

أحست « رشا » أنها كبرت فجأة !.. كانت كلمات أبيها تدور فى رأسها وتحدث به دوياً هائلاً !.. ..

لقد أتعبها وأرهقها بهذا الكلام .. لقد فصل بحده بين مرحلتين من حياتها .. ودفع بها بقوة داخل مرحلة جديدة تماما عليها .. .. ولكنها أحست أيضا أنها تفهم ما يريد .. .. نعم تفهم .. لدرجة أنها أحست خجلا داخليا من مشاعرها وبالذات رعشتها أمام « ميجور » !

يجب أن تكون أكثر جدية تجاهه . فإسمه « ماجد » ولابد أن تناديه بهذا الإسم !.. حقيقة إنها تحب اسم « ميجور » لأنه اسم فخم يوحى لها بأشياء كثيرة تحب الشعور بها . ولكن منذ الآن — وبعد كلام أبيها — لابد لها ألا تنساق وراء كل ما يعجبها . ستحاول أن يبقى ما يعجبها مخزونا بينها وبين نفسها .. أما أمام الآخرين فسيكون ما يعجبها يتواءم معهم !!.

ووجدت انه لابد لها وأن تنهى خيالاتها حول « ميجور » .. فهو شخص يقول عن نفسه انه فلاح !!.. فلماذا تعطيه صورة مبالغة .. لابد أن تعامله فى

حدود تعريفه لنفسه فهو لا يمت للفرسان ولا للنبلاء بأىّ صلة !!

لقد أحست أن كلام والدها قد أحاط جسدها بسياج عازل .. مانع . وإن عليها أن تبقى أبدا خلف هذا السياج !

« رشا » تعيش .. تذهب إلى المدرسة .. تذاكر .. تجتمع بصديقاتها وتشعر شعورا مؤكداً أن شيئا بها قد تغير !!

حتى حين تحاول الصديقات إثارة موضوع « ميجور » بكل الخيال الذى كان به .. تُغير الموضوع .. وتحاول أن تجتذبهن نحو الإنصات إلى الموسيقى . حتى أصبحت معظم لقاءاتهن يقضينها فى الاصغاء إلى الموسيقى خاصة موسيقى الفالس التى كن يعشقنها . وكثيرا ما قمن بالرقص سويا على نغماته الراقية .

إلا أن الذكرى كانت تعذبها .. فكم تخيلت « ميجور » وهو يراقصها وتذكر كيف كانت تحلق معه .. ثم تسمع كلمته : أنا فلاح .. .. فتحس بشرخ فى الاسطوانة التى تسمعها . فخشونة الكلمة تخدش عالم النغم من حولها .

وبعد نجاحها فى المدرسة ووصولها لنقطة إختيار القسم الأدبى أو العلمى . قدرت دخول القسم العلمى . أرادت أن تدرس العلوم شأن الأولاد .. .. إنها تحب الكيمياء .. فماذا لا تصبح عالمة ؟.. ستفعل أى شىء لتحقق لأبيها أحلامه !.

وفى جلسة لبعض رجال عائلة أبيها وأصدقائه .. وهى تدور عليهم تقدم القهوة دخل « ميجور » إلى الصالون فجأة .. ..

إرتجت « رشا » داخليا . وأثرت الرجة على يديها فسالت القهوة من فناجينها لدرجة انه أسرع بالتقاط الصينية منها وهو يُثبت عينيه فيها ويقول بابتسامة : التوازن يارشا .. ثم يتفرس فيها ويقول : مابك ؟!.

حيته وهى تبتسم دون أن تظهر إضطرابها الداخلى .. سلمته الصينية وجلست على أول كرسى صادفها .

امتد الحديث وفجأة سألها : أى قسم ستختارين ؟.. طبعا سيكون القسم الأدبى .. فهو يناسب طبيعتك الهادئة ويناسب هوايتك لقراءة القصص الفرنسية نظرا لاجادتك للغة نفسها .

أحست « رشا » أن بكلامه شيئا .. وكانت قد هدأت من مفاجأة دخوله واستجمعت نفسها .. فردت عليه :

ــ أنا أيضا أجيد اللغة الانجليزية .. وقراءة القصص الفرنسية أستطيعها فى أى وقت فراغ . أما الدراسة فستكون شيئا آخر .. وسأجعلها فى ميدان العلوم .. وسأتلقى دروسا مكثفة فى الانجليزية فى إجازة الصيف .

ــ ولماذا كل هذا العناء ؟.. إن مجال العلوم مجال شاق .. ثم ماذا ستفعلين بدراستك فى هذا المجال ؟.. إن مجال الآداب يُسليك بلا شك خاصة وإن البيت سيكون مكانك بعد أخذ الشهادة . فالدراسة بالنسبة لك ثقافة ليس أكثر من ذلك . ولا يعقل إنك ستعملين بالشهادة لأنك لا تحتاجين إلى ذلك .. وفى غنى عنه !

فردت رشا وقد شاب صوتها شيء من الغضب :

ــ وهل العمل فقط للحاجة .. .. ألا يمكن أن يكون للنفع أيضا ؟.. لماذا لا أكون نافعة لهذا البلد ؟.. ألست عضوا فى المجتمع ؟؟!

ضحك « ميجور » بصوت عالٍ وهو يقول :

ــ إتركى ذلك لى ياعزيزتى .. فقد قمت عنك بهذا

الدور . فقد أتممت دراسة العلوم فى أوربا .. وها أنا أنفع هذا البلد .. .. ثم أضاف وفى صوته رنة سخرية :

ــ وأعدك أن أضاعف جهدى حتى أقوم بنصيبك من النفع أيضا .

طبع المعاندة فى « رشا » يتجمع وترد :

ــ لا .. أنا لن اكتفى بنيل البكالوريوس كما فعلت أنت . أنا سأواصل الدراسة حتى أحصل على الدكتوراه وأصبح عالمة بحق .. ونافعة بحق أنا عن نفسى حتى لا يقدم أحد النفع نيابة عنى !

قال أبوها : وسأكون أول المصفقين لك يارشا .. وهمهم بعض الضيوف :

ــ براقو رشا .. بينما الأب يضيف :

ــ إبنتى لا تقل عن أى شاب جاد متحمس !

أما « ماجد » فقد ركز كل نظره عليها وشملها بنظرة فاحصة متفحصة كمن يريد النفاذ إلى داخل رأسها . نظرة تزلزلت تحتها .. وأحست بوادر الرعشة تعاودها فخرجت من الصالون مندفعة .

كلما أمسكت « رشا » بكتبها العلمية أحست رأسها يشتعل نارا . تريد أن تلتهمها إلتهاما . سبقت الدروس

بالمدرسة .. أنهت الكتب قبل أن ينهيها مدرسوها . طلبت مدرس كيمياء لا لشيء إلا ليقدم لها أسماء كتب جديدة !

أحبت الكمياء بالذات .. وأرادت مواصلة الدراسة فيها إلى آخر مدى . وحين كان المدرس يتعجب لذلك كانت تخبره إنها تدرس لنفسها لمتعتها الخاصة لأنها تطلع على شيء تحبه !

كان كل مدرسيها يعجبون من هذا الحماس والاندفاع للدراسة .. حقيقة لقد كانت « رشا » طالبة مجتهدة جدا .. ولكنها أضافت تميزا بل نبوغا عجب له الجميع .

حتى إن أباها جلس إليها يحاول أن يجعلها تخفف من جهدها هذا :

ــ رشا .. لقد نحلت يا إبنتي .. ليس بهذه الطريقة أردتك تدرسين . أنت لا تخرجين ولا تستمتعين بحياتك . تدفنين نفسك بين الكتب . كل شيء ميسر لك .. أخرجي .. تنزهي ويكفي تفوقك العادي الذي كنت دائما تحققينه .

ــ ومن قال لك يا أبي إني غير مستمتعة ؟.. أنا سعيدة جدا هكذا .. أريد أن أحقق شيئا بداخلي .. .. ثم ضحكت وأشارت إليه وقالت :

ــ وشيئا بداخلك أنت !.

وحين ظهرت نتيجة الثانوية العامة حصلت « رشا » على مجموع كبير رفع من مدرستها إلى مصاف مدارس المتفوقين والتى تضم أوائل الجمهورية !

لقد كانت الثانية على الجمهورية للقسم العلمى !

وكان « ماجد » فى عداد القادمين للتهنئة من رجال العائلة والأصدقاء . وحين دخل .. لمحته .. أطبقت بيدها على حلية تتدلى من صدرها بشدة .. .. أرادت أن تخنق رعشتها .

مد يده مصافحا .. صافحته بيد بينما اليد الأخرى تخنق أكثر وأكثر الحلية المظلومة قائلة :

ــ أهلا « ماجد » .

ــ قال : مبروك ياعبقرية .. الثانية على الجمهورية والله براقو . لكن أتعرفين ياعزيزتى إننى أفتقد إسم ميجور تنطق به شفتيك مرة أخرى !.. حقيقة كنت أستعذبه بطريقة نطقك المميزة .. فهل نسيته ؟!

ــ لا .. لم أنسه .. ولكنه اسم تدليل .. وأنت ــ فلاح ــ لا تتقبل التدليل ولا تحب الأشياء المستوردة .. ثم انك كبرت على هذا الاسم ولم يعد يناسبك .. .. كما إنى لم أعد أحبه !

جلسوا وجرى الحديث .. كانت « رشا » سعيدة بنجاحها .. ولكن هذا كان قبل حضور « ماجد » . وعندما أتى لم تستطع كل أفراحها أن تحول دون تأثرها به !!

تمنت لو نادته « ميجور » .. تمنت لو انها مازالت بضفائرها .. لو أمسك بواحدة منها يعابثها بين أصابعه !. تمنت لو انحنت أمامه وهى تقول له :

ـ لا تصدق إن اسم ميجور لا يناسبك .. وأنا أحب هذا الإسم وأحب ترديده !

وكانت تجلس بحيث لا تواجهه فى جلستها فهى لا تحتمل ما بداخلها حين تواجهه . وإنما حاولت أن يكون موقعه منها بزاوية . حتى حين كان يوجه إليها الحديث كانت لا تلتفت كلية ناحيته !

الحديث مستمر بين الجميع وسمعت أحدهم يقول :

ـ ألف مبروك لك يارشا .. أخذتِ مكانة كبيرة .

ثم سمعت صوت « ماجد » وهو يقول :

ـ ومن يدرى فربما اكتشفت لنا الذرة !

تصورت انه يسخر منها فانتصبت واقفة وقالت بصوت عالٍ :

ــ ماجد .. كم كان مجموعك فى الثانوية العامة ؟

باغته السؤال .. ولكنه حاول التظاهر بحسن الظن فى السؤال .

ــ خمسا وسبعين بالمائة !!.

ــ بيننا فرق كبير .. وسيكون دائما هناك فرق كبير . لقد سافرت أنت إلى أوربا بعد الثانوية العامة وعدت بعد إتمام الدراسة الجامعية .

ــ بمعنى إن كل ما حصلت عليه هو درجة البكالوريوس . أما أنا فسأتم الدراسة الجامعية هنا ثم أذهب إلى أوربا لأعود بالدكتوراه . وبذلك أظل أحتفظ بهذا الفرق الكبير بيننا حتى ولو لم اكتشف الذرة !

لقد كسبتك ياميجور وأنا فتاة ناعمة تقرأ القصص الفرنسية للتسلية فما رأيك ؟؟!.

أوقفها صوت أبيها وهو يقول :

ــ رشا .. .. كُفى عن هذا الحديث !

إلتفتت إليه .. .. أحست أنه رغم تحذيره لها .. فخور بها .. وبحديثها !!.

★ ★ ★

(٣)

وفى الجامعة كانت « رشا » بشخصيتها التى تكونت بعد حديث السادسة عشر !

مرحة .. لطيفة .. اجتماعية . تشارك فى الندوات والحفلات والرحلات ولكنها أبدا لم تسمح لأى زميل أن يكون أكثر من زميل .

بل إنها كونت مجموعة أصدقاء وصديقات حولها .. ولكن لم يكن بينهم أبدا أكثر من مشاعر الزمالة والصداقة .

وكان من بينهم « مصطفى » .. يسكن فى عمارة مجاورة لفيلتها وينضم لمجموعتها طلب منها رقم الهاتف فربما احتاجه لأى سبب .. أعطته له أمام الجميع .

طلبها مرة ليسألها عن شىء .. أجابته . استأذنها فى محادثتها فأذنت له كأية صديقة .

وكان هناك أيضا الدكتور « **فؤاد** » .. أظهر اعجابه بها ومحاولة تقر به منها فى المعمل .

ولكنها هى .. .. لم تكن مع أحد .. كانت لدراستها . بل إنها كانت تستعجل الأيام لتنتهى هذه السنوات معها مرحلة البكالوريوس .

لم يشغل « مصطفى » أو الدكتور « فؤاد » من فكرها أىّ حيز . إنها حين تفكر فى مثل هذه الأمور .. تقفز صورة « ميجور » من أعمق مدارك الشعور . إنها لا تحس إلا به .. ولا تنسى أبدا رعشتها أمامه !

لا يوجد فى الجامعة ولا فى الدنيا كلها من يجعلها ترتجف أمامه .. .. إلا هو !! إن الدكتور « فؤاد » وسيم وموضع نظر كثير من الفتيات ولكنها تواجهه بمشاعر عادية لا ترتج من أجله بداخلها ولا خلجة من أجله .. .. أى انه لا يملك أى تأثير خاص عليها .

صديقاتها يحسدنها عليه ويشجعنها على محاولة التفكير فى أمره .. ولكنها حقيقة لم تستطع !

لم تستطع لإنها لم تجد له تأثيرا عليها . كانت تحس به كما تحس بأى إنسان عادى بلا تمييز له فى نفسها أى شعور لذلك لم تستطع أن تفكر به أبدا من هذه الناحية .

ولما سألتها أحدى صديقاتها : هل تبتعدين عن فؤاد من أجل « ميجور » ؟!

نفت ذلك مدعية إن « ميجور » انتهى من حياتها نهائيا . وإن كل أفكارها حوله كانت أفكار مراهقة . وإنه مازال أمامها ولو أرادته لاقتربت منه وهو لا شك لن يرفض .

وكانت كاذبة !.. فقد كانت أفكارها حوله مازالت مستمرة . لقد كبرت أفكارها المراهقة معها . بل أن أفكارها الآن تعذبها اكثر عن ذى قبل ! وهى تخاف الاقتراب منه أو الكشف عن دخيلة نفسها لانها لا تأمن أن يرفض بالفعل . فهى لم تلحظ إقباله عليها من هذه الناحية !!

التقارب يزداد بينها وبين كل مجموعتها خاصة « مصطفى » .. تذهب للجامعة معه .. وتعود معه .

طلب منها أن يستعيدا بعض الدروس معا .. فلم تر مانعا من هذا . فكانا يجتمعان للمذاكرة فى غرفة المكتب التى تطل وتنفتح على الحديقة بشرفة كبيرة . كانت المجموعة كلها تأتى أو يأتى مصطفى وحده أحيانا .

والكل يعرف ان مصطفى يذاكر معها ولا أحد يفسر الأمر أى تفسير .. خاصة والدها . فهو يعرف أسرة

مصطفى . ويثق ان ابنته تجيد التصرف . وعلى هذا الأساس يسمح لها باستقباله .

يراهما كثيرا وهما يذاكران جالسين فى شرفة غرفة المكتب وهو يطل من شرفة الدور الثانى .

رشا .. تجلس مع مصطفى يتبادلان حل المعادلات بينما « ميجور » يدخل من باب الحديقة ويلفت انتباهه وجودهما .. فيتوقف .. يطيل النظر . ينقل عينيه بين « رشا » وبين زميلها .. وهو يقول ضاغطا على كلماته : مساء الخير .. أين عمى يارشا ؟.

ـــ أهلا ماجد أبى فى الداخل .. ولكن لأعرفك : هذا ماجد ابن عمى وهذا زميلى مصطفى ..

تفضل وسأخبره ابى بمجيئك .

تقدمته إلى الصالون وهى تقول : ثانية واحدة أنادى لك أبى .

ـــ دقيقة واحدة من فضلك يارشا . توقفت رشا لتسمعه يقول :

ـــ أتعرفين شيئا .. لو درست أنا فى الجامعة المصرية ما جرؤت أن أذهب إلى بيت أية زميلة حتى لأعزى فى وفاتها لا لأذاكر معها !!.

اضطربت رشا .. ولكنها تمالكت نفسها وسارعت لتقول :

ــ هذا لإنك فلاح .. ياترى هل حملت معك كل هذا التزمت إلى أوربا . ألم تختلط أو تذاكر أو تخرج مع أيّة زميلة هناك ؟.

فقال : هناك شيء آخر وكنت أتصرف بطريقة أخرى و .. ..

ولكنها قاطعته رافعة يديها :

ــ آسفة .. فأنا لا أطيق الإزدواجية . لو كنت أنا هناك فسأكون كما أنا هنا . أنا هنا أذاكر مع زميلى وأضعه فى مكانه بالضبط .. وهناك لو أردت المذاكرة مع زميل فسأفعل مع الاكتفاء بنفس المكانة لو أردت .

ــ منطق عجيب .. هنا توجد تقاليد .. عادات .

ــ تأكد أنا لن أغير من معتقداتى بتغير المكان ما دمت أعتقد أن ما أفعله ليس إثما ولا زورا . هل تعنى بكلامك أن هنا تقاليد .. .. إننى لو كنت فى مكان آخر أن أترك تقاليدى هنا وأذهب بغيرها ؟.

لا ياميجور أنا لا أستطيع تزييف نفسى والتخفف مما أعتقد بتغير المكان .

ــ أنا لا أحب طريقتك فى المناقشة .. وعلى كل حال أنت حرة وقد جئت لأرى عمى وأخبره ببعض معلومات عن العمل فى شركتنا .. ولم أحضر لأوجهك .

ــ التوجيه لا يكون إلا لمن له الحق .. وأنت .. أنت لا تملك هذا الحق .

وتركته يصرّ على أسنانه بعصبية وعادت إلى مصطفى فوجدته يستعد للذهاب .. وحمدت الله على ذلك . فقد كانت ترتجف غضبا وتريد الاختلاء بنفسها .

سألها مصطفى : من هذا يارشا ؟

قالت : ابن عمى « ميجور » .

ضحك مصطفى وهو يقول ميجور ؟.. فى أى جيش .. على كل شكله غير مريح . هل أنت مخطوبة له أو أى شىء كهذا كما يجرى عادة فى العائلات الكبيرة ؟

ــ لا لست مخطوبة له .. وإياك أن تحاول السخرية منه .. فنحن فلاحون ولا نقبل الإهانة !

وعندما اختلت بنفسها حاولت أن تهدىء من روعها وخفقات قلبها كانت مضطربة حقيقة تلف وتدور فى الغرفة . وعندما دخلت إليها المربية كعادتها كل مساء لتبادلها الحديث سألتها :

ـــ لماذا لم يسهر ميجور معك ياشوشو ؟

ـــ لقد جاء ليحادث أبى فى عمل .

ـــ لو أظهرت له أىّ اهتمام لكان أطال الجلسة معكما .

ـــ ولماذا أظهر له الاهتمام وأنا لا أهتم به بالفعل . إنه مغرور متزمت .. رجعى . وأنا لا يعجبنى هذا النوع من الرجال .

ـــ يارشا .. هل « ميجور » لا يعجبك حقيقة ؟.. لا أصدق .. فلو رأيت تورد وجنتيك وإرتعاش يديك كلما كان هنا .. .. لقلت كلاما آخر .

ـــ أرجوك يادادة لا تتخيلى أشياءً لا تحدث .

ياحبيبتى ربنا يجعله من نصيبك .

ـــ وكُفّى أيضا عن ترديد هذا الدعاء . نصيبى سأصنعه أنا .. طبعا بإرادة الله التى هى فوق كل شىء . ولكن الله يريد لى أن اكون إنسانة حرة الاختيار .. وأنا لا أريد ميجور لا أريده لا أريده !

ـــ آسفة يا ابنتى لا تغضبى .. واعتبرى هذا الدعاء أمنية خاصة بى وليس لك صلة لها .

ذهبت « رشا » الى الجامعة وكلها عزم أن تشغل نفسها بالدكتور « فؤاد » .. حتى تقضى على أى شعور نحو « ميجور » ذلك المغرور الرجعى .. إن الدكتور فؤاد به كل ما تتمنى أية فتاة . وسامة وعلم وهدوء واتزان ومكانة مرموقة . أما أمور التأثير والارتجاف فأمور صبيانية لابد وأن تتوقف عن الاحساس بها أو طلبها فى أى رجل تقترب منه .

إن الدكتور « فؤاد » يتفوق على « ميجور » فى كل شىء .. وقد اختارها هى من بين كل البنات . أى إنه ميّزها وأعجبته كما هى . لكن « ميجور » ينتقدها ويحاول السخرية منها .. ويكفى إن « فؤاد » يحترمها ويشيد بمجهوداتها فى المعمل ويثنى على دقة تجاربها .

وفى يوم وهم فى المعمل يقترب منها الدكتور ويهمس :

ــ صباح الخير يارشا .. أريد نتائج تجاربك فأنا مهتم بها كل الاهتمام فأنا معجب بجهدك واستمرار مباشرتك لها ومنحها كل هذا الوقت أنت بالفعل تحبين المعمل .. وأنا أحب هذا فيك .

فابتسمت وقالت بمكر انثوى : أهذا فقط ما تحبه فىّ يادكتور ؟! فطن الدكتور فؤاد إلى هذه الملحوظة الذكية وقال :

ـــ لا والله يارشا فكلك يعجبنى .. كل ما فيك يعجبنى وأعرف أنك فتاة متميزة عن الجميع .. ثم همس : وأجمل بنت فى الجامعة كلها .

فأطرقت خجلا وهى تتلقى هذا الغـزل وإبتسمت .. .. .. ولكن آه .. لم تشعر ولو بخفقة واحدة فى داخلها !!

ترفع عينيها فى « فؤاد » .. لا غبار عليه .. انه رجل يقترب .. ويهمس برقة ويغازلها .. ولكن لا شىء يتحرك له بداخلها .. .. واآسفاه لماذا لا تشعر .. لماذا لا تشعر ؟؟!!.

إن الآخر لا يقترب ولا يهمس ولا يغازل ومع هذا يرتج كيانها كله حين تقع عيناها عليه . سبحان الله .. القلب وما يهوى ..

على أيّة حال هى لم تقطع الطريق بينها وبين « فؤاد » بعد .. فربما .. .. ربما !!.

رشا .. مستمرة فى العمل والمذاكرة بكل قوتها ودوافعها وآمالها . مصطفى معها دائما فى الكلية وفى البيت . تعوّدت وجوده اكثر مما تعودت انه يلزم فقط للمذاكرة . « مصطفى » لم يعاملها إلا فى حدود ما رسمت

له ولكنها فى المدة الأخيرة لاحظت عليه تغييرا !!. وكأن به شيئا يقلقه . سألته وهى تحاول أن تخفف عنه :

ـــ ما بك يامصطفى ؟.. أتريد أن تفضى إلى بما يقلقك .. لا تنسى يامصطفى نحن أصدقاء .

ـــ لا شيء يارشا .. لا شيء .. وأشكرك على الاهتمام .

وفى يوم بعد جهد طويل فى المذاكرة والجلوس إلى المكتب قاما ليستريحا . فجلست « رشا » على كنبة كبيرة فى الغرفة وأراحت ظهرها وألقت رأسها إلى الخلف .

وجلس مصطفى على المقعد المواجهه لها . ساد الصمت فترة طويلة وقد أغمض كل منهما عينيه .. .. وفجأة قام مصطفى وانحنى عليها ليقبلها قبلة قصيرة خاطفة ثم انطلق خارجا بسرعة قبل أن تنطق بكلمة !!

هبت « رشا » كمن لدغته عقرب .. .. تنتفض .. تصرخ :

ـــ هل جننت .. يامجنون لماذا .. لماذا . كيف تجرؤ ؟.. تدور حول نفسها تجلس .. تقف . بعد مدة جرت إلى التليفون :

ـــ مصطفى .. تعال .. تعال الآن فورا .. تعال .

ـــ أرجوك يارشا ! انتظرى إلى الغد لتقولى ما تريدين .. أرجوك فلست فى حالة تسمح بالحديث .

ـــ وأنا لست فى حالة تمكننى من الانتظار إلى الغد . تعال الآن وإلا سآتى أنا عندك !

ـــ حاضر حاضر يارشا سأحضر فورا .

وعندما وصل إنتفضت واقفة وهى تصيح :

ـــ مصطفى لماذا .. لماذا ؟.. ليس بيننا أى شىء . أنا كنت أثق بك أنت صديقى .. هل لمست منى سلوكا معوجا ؟.. هل عرفتنى فتاة تلهو ؟ ما الذى دفعك إلى ما فعلت ؟!

ـــ أيعقل اننى قبلتك لأنك معوجة أو لاهية ؟.. لو لاحظت ذلك عليك لصفعتك .. ولكنى قبلتك لإننى معجب بك .. وأنا أعتبرك « ماى جيرل فرند » !..

ـــ جيرل فرند ؟؟!!.. هذه الكلمة ليست فى قاموسنا . لذلك فقد قلتها بالانجليزية . ثم كيف اعتبرتنى كذلك ؟.. من طرف واحد !! هل شعرت إننى أعتبرك « بوى فرند » ؟.. هذه التسميات لا تعجبنى ولا أتعامل بها .. .. لنا تقاليد .. عادات .. .. ثم زاد اضطرابها

فأخذت تبكى وهى تواصل حديثها : اننى لا أشعر بأننى أحبك أنت لست أكثر من زميل .. صديق . كنت أحترمك .. ولكنك خنتنى أنا لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى .. أتسمع ؟.. لقد انتهيت بالنسبة لى .. وعلا نشيجها .. انتهيت بالنسبة لى .. أخرج .. أخرج .

خرج مصطفى يجرى وهو فى غاية التأثر . بينما سقطت هى وهى تبكى بصوت عالٍ .

وفجأة سمعت صوت عربة تتوقف فى الحديقة .. أسرعت إلى النافذة ناظرة لتجد عربة ميجور وهو يهبط منها .. .. أنيقا دائما .. بل انه هذه المرة يرتدى من الملابس ما يطابق بالفعل ما كانت تتخيله بها !!

حملقت من وسط الدموع .. وكان الجو باردا .. وهو يرتدى معطفا أنيقا يرفع كولته وتدفىء عنقه كوفية معقودة بعناية واضحة يديه فى قفاز من الجلد .. وحذاءه أنيقا لامعا ..

انتقلت من نافذة إلى نافذة ترقبه فى تحركه وهى تمسح دموعها بيديها .. .. ما أروعه !.. آه لو كان هو صاحب القبلة المسروقة .. .. اللعنة على ذلك الحشرة مصطفى .. أين هو من هذا المخلوق البديع !!.. آه لو كان هو .. .. وخبطت فى صدرها ألف دقة !

الخادم يفتح الباب ويفسح له المدخل .. وهو يسأل عن عمه ويقصد مباشرة الصالون .

دخلت رشا إليه .. ونسيت نفسها فقالت مندفعة :

ــ مرحبا « ميجور » .

رفع حاجبيه تعجباً وقال :

ــ أهلا رشا .. ها أنت قد عدتترددين اسم التدليل !.. ياترى هل عدت تحبينه ؟.. وهل عدت أنا أستحقه ؟!

قالت فى إنبهارها :

ــ نعم نعم .. فأنت الليلة أنيق جدا .. تُرى ما الداعى لكل هذا التأنق ؟!.

نظر إليها بتعمد وأجاب متخابثا :

ــ لا شىء إلا انى هنا فى القاهرة . وفى كل ليلة من وجودى هنا أعيش ليل القاهرة كما يعيشه أى شاب .

قالت باندهاش : أنت ؟!.

ــ نعم أنا .. .. ألست شابا مثل كل الشباب .

ــ ولكنك قلت عن نفسك فلاحا ؟!

يضحك ويقول وهو يتجه إليها يلمس ذقنها بطرف إصبعه :

ـــ فلاح متمدن يا آنستى .. عشت فى أوربا سنوات . وأعيش شبابى وحريتى .

ـــ أنت لا تعترف بالحرية ولو كانت فى أبسط مظاهرها !

ـــ أعترف بالحرية فى حدود . لكن لا تحاولى أن تقنعينى أن تأتى بأحد الشبان ليسهر معك هنا ولو كان هذا للمذاكرة .. ثم تقولين أبسط الحدود . أنت فتاة .. فتاة .. يجب ألا يغيب هذا عن ذهنك لحظة .. .. فتاة رغم كل ما يدور فى رأسك من أفكار !.

ثم إقترب أكثر منها وهو يقول :

ـــ لو كان الأمر فوضى .. حرية كما تقولين .. لاصطحبتك معى للرقص فى أحد الملاهى التى سأذهب إليها الآن !

زادت علامات الدهشة على وجهها :

ـــ وتذهب أيضا إلى الرقص ؟!

ودخل الأب وهو يرحب فنظرت إليه ثم قالت :

ـــ على كل حال سهرة سعيدة يا « ميجور » .

(٤)

اختلت « رشا » بنفسها وهى حائرة . لعلها لأول مرة تشعر بكل هذه الحيرة !

« ميجور » يخرج ويسهر ويرقص ويستمتع بشبابه ويصاحب الفتيات ثم يأتى ليحدثها عن التقاليد والعادات والحرية المحدودة !. وينظر إليها على انها مخلوق أقل منه لأنها فتاة !!

وهى تحاول أن تمارس الحرية بكل استقامة وخُلُق فتفاجأ بمن يختطف منها قبلة ويجرى ؟!.

ويقترب منها رجل بهدوء واتزان وأدب من الممكن أن تجمعهما رابطة يحترمها الناس وترضى عنها التقاليد فلا تحس به ولا يوجد له أى صدى فى نفسها !!

إنها فعلا حائرة !

وتغرق نفسها وسط الكتب والنظريات والمعادلات تستذكر .. تراجع دروسها . ولكن آه .. .. شيء فى داخلها يتأوه .. ولا يرضى ولا يكفيه هذا النجاح والتفوق .. تشعر ان هناك نقصا ما !

كرهت الذهاب إلى الجامعة .. وكرهت أن ترى مصطفى . كيف ستقابله .. كيف ستعامله ؟!.

بقيت فى البيت أسبوعا . سألها أبوها عمّا أصابها ؟.

قالت : لا شيء .. فقط أود الراحة .

قال : هل تودين أن نذهب إلى العزبة عند عمك وميجور نقضى أياما ترتاحين فيها ؟

راقت لها الفكرة .. ولم لا ؟.. ربما هناك فى الريف حيث الخضرة والهدوء وحيث يوجد ميجور تكون أسعد حالا !

حين هبطت من العربة .. اقترب منها « ماجد » مرحبا :

ــ أيعقل أنت هنا ؟.. منذ أن أخبرنى عمى بالتليفون وأنا لا أصدق .. فأنت لا تحبين الريف ولا الفلاحين .. فكيف أتيت ؟!.

ــ ميجور .. أرجوك إذا كنت ستسخر من حضورى فسأعود على الفور .

ــ أتنسحبين بهذه السرعة .. أين عنادك ؟.. على كل حال الريف وأهله جميعهم يرحبون بك .

آه .. انه لا يريد أن ينسى موضوع المعاندة بيننا !.. ليتك تهادننى ياميجور ويكفينى الحيرة التى تملؤنى . دعنى استمتع بوجودك وبتلك الرعشة البكر المحببة التى أحسها تدغدغ حواسى ومشاعرى .

ولكن على مائدة الغداء روّعها حين أعلن إنه سيذهب إلى القاهرة بعد ظهر نفس اليوم مضطرا لوجود عمل عاجل وسيمكث هناك يومين !!

رُوعت رشا بهذا الخبر بالفعل . لابد انه تعمد ذلك .. هى تعلم انه تعمد ذلك . ولكنها أخفت خواطرها ولم تستطع إلا أن تقول إنها لن تمكث إلا يوما واحدا تعود فى نهايته لأنها مشغولة أيضا !

قالت هذا وتحاشت النظر إليه لتتجنب عينيه . لقد كانت تشعر انه يمتلك فى عينيه قوة كاشفة تنفذ إلى داخلها .. وكانت تخشى أن يكتشف رجفتها ورعشة كيانها كله تحت وطأة نظراته !

حيته باقتضاب وهو يعلن أسفه لتركهم وهى تحاول التماسك حتى لا يلحظ من ارتجاف يدها وهى تصافحه حقيقة ما أصابها من خيبة أمل !

لقد كانت متألمة لموقفه منها .. وكانت تُمنى نفسها بأيام هادئة يعود فيها إلى لطفه عندما قابلته أول مرة !

ولكنه تركها ليؤكد لها عدم اكتراثه بها .. كان يمكن أن يؤجل أى عمل لو أراد .. ولكنه فعلا يتعمد إهمالها !

وفى طريق العودة يحادثها والدها سائلا عن سبب كآبتها وانقطاعها عن الجامعة .

ـــ حبيبتى تخفى عنى ما يكدرها .. فلماذا ؟.. ألسنا صديقين ؟.. ثم أين مصطفى ؟.. لقد لاحظت إنقطاعه عننا !..

وحين ذكر الأب مصطفى .. تغير وجهها . فقد أزعجها مجرد ذكر اسمه .. إنه يجرح أذنيها !

ولاحظ الأب ذلك فقال :

ـــ هل أنت غاضبة منه ؟.

فازداد إضطرابها ولحظة الوالد فتساءل :

ـــ هل آذاك ياحبيبتى .. أو جرح شعورك .. هل أساء إساءة متعمدة إلى وجوده بيننا ؟..

أطرقت « رشا » .. ولم ترد . وإن كان حالها يحمل الرد !

ـــ ياشوشو ياحبيبتى ان شابّة حُلوة مثلك وتتمتع بقدر من الحرية لابد وأن تصادف عثرات فى طريقها .. لا تتصورى أن الطريق أمام مَنْ يمشون فوقه بحرياتهم مفروش بالورد !.. إنه مملوء بالطوب والحجارة ولابد لهم من التعثر فى كل بقايا التخلف والرجعية . والحكيم هو من يستطيع ـــ رغم كل شىء ـــ أن يقطعَ الطريق ولو قفزاً أو حتى على ساق واحدة إلى أن يصل !.

ـــ يا أبى يا أبى .. إن مصطفى جرحنى ولم يحترمنى .

ـــ أبدا .. إنه لا يحترم نفسه . إنه لا يستطيع أن يحكم هذه النفس مثلك . لم يستطيع أن يسلك سُلوكا حضاريا فيأخذ رأيك فيما ينوى . لقد فرض نفسه بهمجية .. إذن هو الذى سقط وليس أنت . أنت كما أنت لا تدعى سقوط أحدهم يؤثر عليك . أما هذه السخافات التى جرحتك فلابد من اعتبارها تجارب تستفيدين منها فى اختيارك للناس .

ليس العيب فى الصداقة أو الزمالة .. إنما العيب فى الأشخاص وما أغضبك من مصطفى سيجعلك تحسنين إختيار الشخص بعد ذلك .

لا تغيرى معتقداتك عند اصطدامها بأول معارضة مادمت تعتقدين إنها سليمة !.

ـــ أنت رائع يا أبى لقد أرحتنى . وهناك ما أريد إخبارك به أيضا ولكن بعد مدة بسيطة حين أكوّن رأياً حوله .

ـــ اخبرينى بما شئت ـــ وقتما شئت فليس لدى ما هو أهم منك .. .. أنتِ « مراد شريف » مرة أخرى .. أنتِ إمتداد لى بآرائى وطبيعتى وفكرى .. فكأنى بك أعيش مرتين .. وبك أحس التجدد والاستمرار ..

دعى الكآبة .. وإنهضى بسرعة من عثرتك . وإرمى بهذا الحجر الذى أعاقك وراء ظهرك فقد إنتهى دوره بعرقلتك .. فالقيه أنت فى هوة النسيان .. وإرتفعى فوق كل الأحجار . وتفاءلى ..واصمدى .. ولا تنظرى أبدا إلى ما بين قدميك وإلا كانت له قيمة . مدّى نظرك إلى الأمام .. .. وواصلى السير !

قفزت « رشا » إلى أبيها وهو على عجلة القيادة وقبلته :

ـــ لى والله أروع أب فى الوجود .

وفى الكلية .. الدكتور فؤاد يقترب منها وهو يهمس :

ــ رشا .. أين كنت .. لقد افتقدناك .. أكنت مريضة ؟.. لا أظن ذلك فتورد وجنتيك يقول غير ذلك !.. رشا .. أريد أن أحدثك .. تعالى إلى غرفة المكتب أخبرك بشيء مهم .

ــ دكتور فؤاد جئت أسمع الشيء المهم الذى تريد اخبارى به .

ــ رشا .. ألا تحذرين ؟. ألم يدلك حسك المرهف عليه ؟.

ــ لا أعتقد أن لى حسا مرهفا لدرجة أن أعلم أشياءك المهمة يادكتور ؟

ــ رشا .. أنت تعلمين انى معجب بك .. فإذا كنت أنا أعجبك .. فإنى أخطبك من نفسى ثم أخطبك من والدك بعد ذلك .

فتحت رشا كل سمعها وحسها لهذه الكلمات ترصد بدقة وتنبه تأثيرها . انتظرت لتُحصى دقات نبضها التى من الضرورى أن تسرع .. وخفقات قلبها التى من الضرورى أن تتابع .. .. ولكن .. .. للأسف .. لا صوت ولا صدى !.. بحيرة راكدة !. كأنها جهاز رادار معطّل .. لا إرسال ولا استقبال !.. للأسف للأسف !

يختلط وجه الدكتور فؤاد بوجه « ميجور » وهو يعبث بضفيرتها .. وهو ينحنى ليقبلها .. وهو يراقصها .. حتى وهو ثائر يحتج على تصرفاتها .. وهو يتألق فى رداء السهرة . « ميجور » بكل صوره .. .. حتى بنظرة السخرية فى عينيه !

أحست انها لا تريد إلا هو !! هذا المتناقض العنيف الساخر الهادىء الثائر الحنون الرجعى .. ريفى المنبت .. أوربى التعليم !

ولم تستطع أن تتحكم برأسها وهو يهتز يمينا ويسارا علامة الرفض .. .. ثم تخرج مسرعة !

وفى إندفاعها تلتقى بمصطفى الذى يسارع ليقول :

ــ رشا .. .. أرجوك أن تسمحى لى ببعض لحظات . رشا .. أنا آسف لا أستطيع أن أتحمل غضبك منى . أرجوك إنسى ما حدث ولنبدأ من جديد .

نظرت إليه كمن يرى شبحا من الماضى .. واحتاجت لمجهود لكى تركز فى كلماته . وكلفها هذا جهدا لتتمكن أن تستدعى تفكيرها كله الذى كان موزعاً بين كلمات الدكتور فؤاد .

ــ رشا .. أجيبى أرجوك .

ـ لقد نسيت .. .. تأكد لقد نسيت .

وقبل أن تعلو علامات الفرح وجهه أضافت ..

ـ لقد نسيتك كلك بحسناتك وسيئاتك .. بل كأنى لا أعرفك !!

ـ ألهذا الحد تكرهيننى ؟.

ـ لا اكرهك ولا أحبك .. .. ولا شىء بالمرة . قلت لك نسيتك !.. وأرجوك ألا تعترض طريقى مرة أخرى . فأنا لا أريد أن أتذكرك .. وصورتك تزعجنى وتضايقنى لإنك تمثل لى أول رسوب فى حياتى .. أنت فشلى الأول فى أفكارى الخاصة .. أنت إنتصار لآراء ميجد .. .. لآراء الرجعيين !

« رشا » لا تجد ما يخرجها من حيرتها وتساؤلاتها إلا الإنغماس الشديد فى الاستذكار .. والاستغراق فى مزيد من الكمياء !!.

جعلت من دراستها لها قيمة !.. قيمة تفلسف متناقضات حياتها . تأخذ من تفاعلاتها صورة عما يحدث حولها !

الدنيا كمياء !!.. لابد من إتقان مَزْج التركيبة حتى تأتى النتائج سليمة ومفيدة !.

إن ميجور .. خطأ لأنه لا يجيد مزج أو تقريب الأشياء المختلفة .. ومصطفى خطأ ــ رغم انه يدرس الكمياء ــ لإنه أيضا لا يجيد فن التركيب !

أما هى فستقيم التوازن هنا أو فى أى مكان آخر .. مع « ميجور » أو أى إنسان آخر .

لاحظ الدكتور فؤاد ان رشا .. تتحاشاه .. ففهم إنها لا توافق . واحترم رغبتها فى عدم الحديث .. وصمت عنها وإن ظل دائما يرسل لها نظرة متسائلة بها بعض العتاب كأنه كان يتصور ضرورة موافقتها .

الامتحانات النهائية تقترب ورشا تستميت فى الاستذكار وفى إجراء التجارب فى المعمل .

لقد نسيت كل شيء حولها .. العالم كله وانحصرت فى كتبها وأبحاثها . حتى ميجور حاولت أن تبتعد عن زياراته لبيتها ــ فقد كانت لا تحقق منها أى تقدم طيلة هذه السنوات .. فقد كانت له شخصية من نوع فريد لا يدعها تفهم تماما ماذا تعنى هى بالنسبة له . لذلك حاولت حجبه عن تفكيرها فى هذه الفترة الهامة من حياتها .

كانت تريد المحافظة على التفوق . بل كانت تريد الحصول على ما لم سبق وأن حصل عليه غيرها . كانت

تريد أعلى الدرجات وأعلى التقديرات فى كلية العلوم .

لفتت إليها الأنظار خاصة أساتذتها . ونالت إعجاب بعض زملائها وزميلاتها .. .. وحقد الآخرين .

وكان هناك أبوها يرقبها باعجاب وإشفاق وحب . حين كان يراها جالسة غارقة فى كتبها ومنقطعة عن العالم .. كان يطيل جلوسه هو الآخر فى البيت لا يفعل شيئا إلا أن يرقب تحركاتها داخل مكتبتها حركاتها .. سكناتها باعجاب ولذة غريبين .. وكأنه يرقب أهم الأشياء فى عمره كله !.

وفى يوم عادت رشا من الخارج سمعت صوتا صادرا عن الصالون . سألت المربية فأخبرتها إن ميجور بالداخل يلعب الشطرنج مع أبيها . فأسرعت إلى غرفتها . وطلبت من المربية إخبارهما لو سألا عنها أنها نائمة ولا تريد إزعاجا .

فتعجبت المربية وقالت : حتى أدخلى لمجرد التحية .

ــ لا .. أنا مشغولة بالمذاكرة ولا أريد أيّة إثارة لأعصابى فى هذه الفترة .

ــ وما الذى يثير أعصابك ياشوشو ؟.

تنهدت وأجابت : ميجور يثير أعصابى !.

ــ ميجور ؟.. عجيبة .. إنه إنسان لطيف ودود لا يمكن أن يثير أعصاب أحد فلماذا تنظرين له هذه النظرة مع انه ربما صار زوجا لك !

صاحت رشا : يبدو انك أنت التى ستثيرين أعصابى .. أنا نائمة وحسب أفهمت ؟.. .. وجرت إلى غرفتها وأغلقتها بالمفتاح .

وحين جلست إلى مكتبها نسيت ميجور بالفعل .. ونسيت وجوده والحقيقة أنها أحست فخرا واعجابا بنفسها .

لقد أحست انها تقهر عجزا ما بنفسها . وإنها لأول مرة تتغلب على النقطة الضعيفة فيها .

الاستذكار يأخذها تماما ويستغرقها .. أنساها كل شيء عداه حتى كانت النتيجة المتوقعة .. التفوق الكبير الذى قفز بها إلى أول الدفعة . حققت بالفعل ما كانت تطمح إليه .

أبوها يقبلها بفرحة كبيرة :

ــ لقد حققت كل ما كنت أحلم به ياشوشو وأكثر . الآن انتهت المرحلة المرهقة فى حياتك الدراسية وجاءت فترة الاستمتاع . الدراسات العليا متعة يارشا .

فالتخصص فى حد ذاته متعة . تعّودى أن تخلقى لنفسك متعة فى هذا العمل .

ستذهبين إلى لندن .. وسأرتب لك كل شىء . وهناك حاولى أن تخلقى عالما جميلا لك من الدراسة . لا تدرسى كما كنت تدرسين هنا أرجوك الرفق بنفسك . حاولى أيضا أن تستمتعى بوجودك فى بلاد جميلة متحضرة .

سافرى .. تنقلى .. اشتركى فى الرحلات زورى كل البلاد .. لا تحصرى نفسك بين الكتبْ فقط . لا تعودى إلى بشهادة الدكتوراه ووجه شاحب .. وقلب عجوز !.

ــ يا أبى أنت تتصور أشياء لا أحسها . أنا أحب الدراسة بالفعل وأستمتع بها بالفعل . لا تظن أنى كنت أسجن نفسى هنا .. وإنما أنا أبقى بين أشياء أحبها . أما هناك فسأحاول أن أسد فراغ عدم وجودك بالتجوال والأصدقاء والتعرف على عالم جديد .. ولو أن لا شىء يعوض غيابك عنى .. ..

دخل الخادم يعلن وجود ميجور .. نهض الأب لملاقاته ..

ميجور يقول : تُرى هل جئت فى وقت مخصص للأحاديث العائلية ؟.

ـــ أهلا أهلا .. ألست أنت من العائلة أيضا ياميجور ؟

ـــ إذن فيم كنتما تتحدثان ؟

ـــ فى موضوع السفر .

ـــ أستسافر ياعمى ؟

ـــ لا .. وإنما سفر شوشو إلى لندن لتكملة الدراسة فى جامعتها .

إضطرب ميجور ربما لأول مرة .. ولكنه سيطر على نفسه بسرعة وقال :

ـــ رشا تسافر تدرس فى لندن بمفردها ؟.. لماذا ياعمى .. ألا توجد هنا دراسات .. ألا يحصل كثيرون من هنا على الدكتوراه ؟.. ..

أم ترى أن رشا لا تستريح إلا إذا كانت شهادتها من الخارج ؟!.

رشا تتماسك وتقول :

ـــ وما الذى يمنع ياميجور ؟

ـــ يمنع انك فتاة وستعيشين بسفرك فى مجتمع مختلف .. دنيا جديدة .

ـــ وهذا ما يجذبنى للسفر .. هو اكثر عوامل الجذب أهمية !

الأب يشعر بقرب وقوع تصادم بينهما فيحاول أن يحسم الأمر ويقول :

ـ ألم تعش أنت هذا المجتمع المختلف وهذه الدنيا الجديدة ؟.

ـ نعم ـ ولكن ـ هذه .. .. فتاة ياعمى !!.

ـ ميجور .. ابنتى لا تقل عنك ولا عن أى شاب .. ابنتى ستسافر وستعيش هناك بتوازن ربما يفوق استطاعة أى شاب أن يحققه . أنا أعرفها جيدا .. وأثق بها تماما . وأوافق على سفرها بكل رضى . وأعطيها حقها كاملا فى الحياة والتجربة .

وعندما وصل الحديث إلى هذا الحد كان التوتر قد وصل بميجور إلى أقصى حد . يحاول التحكم بنفسه .. فأشعل سيجارة أخذ يدخنها فى صمت استمر بضع دقائق .. ثم إندفع منفجرا بلا وعى :

ـ تجربة ؟!!.. أيّة تجربة ياعمى تتحدث عنها ؟! هل البنات تجرّب ؟.. البنات ؟!.. هل تتزوج أنت امرأة مجربة ياعماه ؟ هل تقبل .. هل .. ..

قطع عليه عمه الحديث بشدة :

ـ ميجور .. يؤسفنى إنك تحصر عقلك وفكرك فى

مدلول ضيق جدا لكلمة تجربة ! وأنا لا أحب الحديث بهذا المستوى . وحين ترتفع بحديثك إلى مستوى مناقشة ناضجة .. فسوف أحادثك .. .. ولكن الآن ..

الآن سأنسحب .. وربما عدت فيما بعد لمواصلة الحديث فأنا الآن غير صالح تماما للكلام على أى مستوى .. وخرج مسرعا دون أن يحيى ولا يسلم .

كل هذا ورشا صامتة تنقل عينيها بين ميجور وأبيها وهى حزينة .. متألمة .. آسفة .. ترتجف داخليا بتأثيرين .. تأثير ميجور الشخصى عليها .. وبتأثير أفكاره الجارحة !.

* * *

(٥)

رشا .. تقضى أيام الأجازة فى استرخاء واستماع إلى الموسيقى .. ولقاء الصديقات والبقاء فى الحديقة أطول وقت ممكن . وقد تعجبت صديقة لها من أمرها وسألتها :

ــ ما بك ياشوشو ؟ أنت لا تخرجين أبدا .. فقط تجلسين فى الحديقة تستمعين إلى الموسيقى وتقرئين ؟!

ــ أفضل الأشياء أفعلها إذن .. ثم إنى سأسافر وأترك البيت لسنوات فلماذا لا أستمتع بالبقاء فيه ما بقى لى من وقت بالقرب من أبى ؟.. أبى يعد لى كل شىء استعداد للسفر إنه يريد لى أن أستقل هناك ببيت صغير وأن أصطحب معى المربية .. .. ولكنى أرى غير ذلك .

أريد أن أسكن فى بيت الطلبة أو المدينة الجامعية لأختلط بالناس ولا أنغلق فى بيت صغير أنا والمربية .

ــ ولكن هل يوافق ميجور على كل هذا ؟.

صمتت رشا قليلا حتى تخفى أثر خفقة قلبها التى خفقت بمجرد سماع اسمه والتى خالت أن صديقتها سمعتها .. ثم قالت :

ــ وما علاقة ميجور بهذا الموضوع ؟

ــ أليس من المفروض أن يتزوجك ؟

ــ ولماذا هو مفروض ؟!.. أمور الزواج والحب لا فرض فيها !.

ــ كنت أظن أنكما متحابان ويربط بينكما عهد قديم على الزواج كأغلب عائلات الريف .

ــ لا .. لا يربط بيننا عهد قديم ..

ــ ولا أنتما متحابان ؟

ولم تستطع رشا الاجابة بسرعة وإنما خفق قلبها بشدة وهى تستجمع كل قواها لتنطق :

ــ ولسنا متحابين !!..

رشا .. جالسة فى المساء فى غرفتها أمام التليفزيون تتابع إحدى الحلقات الأجنبية . دخلت الداده تخبرها بأن ميجور موجود ويريد مقابلتها .. توقف انتباهها وهى تنظر للدادة .. وبعد مدة قالت :

ــ قولى له إن أبى ليس هنا .

ـــ لقد أخبرته بذلك ولكنه يقول إنه يريدك أنت .. يريد أن يتحدث إليك !.

ظلت فترة ساكنة لا تتحرك وإن كانت الرعشة تسرى فى عروقها .. شيء فى داخلها يرتج لمجرد علمها برغبته فى الحديث معها !.. قالت :

ـــ اخبريه أنى سأحضر حالا .

خرجت المربية وبقيت هى مكانها تحاول السيطرة على نفسها . لابد أن تقابله بوجه خالٍ من الأحاسيس .. لابد أن تلقاه ببرود .

وعندما دخلت الصالون قالت :

ـــ أهلا ميجور .
ـــ أهلا بك يارشا .. ثم أضاف وهو يركز عينيه فيها :
ـــ لقد أوحشتينى !

حملقت بـه غير مصدقة !.. أول مرة يقول لها هذا .. ماذا جرى له ؟ لقد ظنت أنه أتى يريد إثارتها والسخرية منها وإذا به يأتيها مهذبا لطيفا مهادنا !!!..

قالت : عجيبة .. ما هى الحكاية ؟.. أتستطيع أن تقول مثل هذه الكلمات ؟!

قال بثقة : نعم .. .. أقولها حين أحسها .. ..

ثم يضيف برقة : والآن أحس بشوق إليك .. لهذا أقول ما أقول .

كأن هزّة كهربية تمر بجميع مراكز الاحساس فيها .. كلها ترتج .. داخلها كله يرتعش وهو يواصل حديثه ..

ــ شوق هذا دفعنى أن أسأل نفسى .. ماذا سأفعل عندما تسافرين ؟.. ثم وهو يقترب منها وبكل توسل :

ــ أحقا ستسافرين ؟

بعد جهد شديد استطاعت أن تهز رأسها بالايجاب لإنها لم تستطع أن تخرج صوتها .. .. وهو يقترب اكثر واكثر منها هامسا :

ــ حتى لو طلبت منك أنا عدم السفر ؟..

أحست أنها تلاشت .. انتهت .. فهو قريب منها جدا . تشعر بأشعة ساخنة موجهة إليها تكاد أن تحرقها رغم انها ترتجف !!!

وفى لحظة تمنت أن تنتهى كل الأشياء .. لتذهب الدكتوراه ولندن إلى الجحيم . إنها لا تشعر ولا تحس شيئا إلا بهذا المجال المغناطيسى الذى يلتهمها .. وهذه اللفحة الحارة التى تشعلها !

لاحظ ميجور انفعالها .. فركز أكثر .. اقترب منها

أكثر وخفض هَمْسه أكثر وأكثر .. ..

ـــ لا أريد أن تسافرى .. أريدك هنا .. بالقرب منى .. أتفهمين .. قريبة منى .. ..

همست بشفتيها .. لكن بصوت إحساسها :

ـــ ميجـور .. .. ..

نداء قصير حار .. مرتعش ترجمة لكل ما بها .. .. وكررت : ميجور

ـــ نعم ياحبيبتى .. نعم ..

شفتاه تطوفان بوجهها .. عنقها .. جذبها فى ضمة طويلة .. قبلاته تنهال على كتفيها .. رقبتها وشفتيها .. ..

أما هى فكانت قد جمدت تماما . توقف نبضُها .. وتنفُسها .. واقتربت من مراحل الاغماء .

ميجور يحكم سيطرته عليها ويهمس :

ـــ ما بك ياحبيبتى .. ما بالك ساكنة ؟.. شوشو تنبهى .. هل فاجأتك ؟.. هل يوجد لكلامى هذا صدى فى نفسك .. حبيبتى حبيبتى .. أكنت تحبيننى وتدارين ؟.. حبيبتى أجيبى .. ستلغين فكرة الدكتوراه .. أليس كذلك وفكرة السفر وتبقين لى .. ستبقين لى أليس كذلك .. .. أليس كذلك ؟؟

أفاقت رشا .. عصا غليظة خبطت على رأسها بشدة أفاقتها .. .. خلصت نفسها منه .. وابتعدت .. لكنه ظل ممسكا بيدها .. ولكنها نطقت كلمة واحدة بقوة وإنفعال : لا .. ..

ضغط على يدها لدرجة الإيلام وهو يصر على أسنانه :

ـــ لن تسافرى .. ..

صرخت : سأسافر .. ولو رفض ذلك رجال الأرض جميعا !

ـــ وهل أستوى أنا مع رجال الأرض جميعا ؟..

ـــ وما بك تمتاز عنهم ؟..

ـــ سأتزوجك !

بُهتت رشا .. وانتفضت مبتعدة تحملق به وكأنها لا تسمعه .. فكرر :

ـــ أجل سأتزوجك .. وأعلم انك توافقين !

ـــ لا .. لا أوافق !..

ـــ ماذا ؟؟.. .. ترفضيننى ؟!.

ـــ أجل أرفضك .. أرفض فيك التزمت والرجعية .

انتفض واقفا وهو يقول :

ـــ أنا !!!.

ــ نعم أنت .. أنت يا من لم ترتفع بك جامعات أوربا شبرا عن الأرض ..

ــ اسكتى .. أنا لا أحب هذه النبرة فى كلامك ..

ليس المهم أن تحب أو لا تحب أنت .. المهم هو ما أريده أنا لنفسى بعيدا عن كل رجعيتك وتزمتك وغرورك .. ..

تصاعدت دماء الغضب إلى رأسه تشل تفكيره تماما فيهوى بصفعة على وجهها وهو يقول :

سأرغمك على أن لا تقولى هذا الكلام ثانية .

وخرج يجرى للخارج .. ..

أمسكت رشا بظهر المقعد بكلتا يديها تساعد نفسها على عدم السقوط .. ووقفت ثوانى .. ثم صرخت تنادى ..

داده .. ثم سقطت مغشيا عليها .

الطبيب يؤكد أن رشا بخير .. وإن ما بها لا يعدو وأن يكون إرهاقا مع بعض التوتر العصبى .

الأب يحنو عليها :

ــ لا تدعى أى شيء يوتر أعصابك يا ابنتى أنت على وشك السفر .. أى الأشياء أثارت أعصابك

ياحبيبتى ؟.. ابتعدى عن كل ما يضايقك حتى لو كنتُ أنا ..

ـــ أنت يا أبى ؟!.. أنت أجمل ما فى حياتى ..

فيحتضنها ويقول : ماجد أخبرنى بالهاتف أنه يريدنى فى أمر هام وسيأتى بعد ظهر غد لمقابلتى . ولا أدرى ما هو الشىء المهم الذى يريدنى من أجله .. فالعمل بيننا منسق ويسير بانتظام .. ألا تحذرين ياحبيبتى ؟

ـــ يا أبى .. مالى أنا .. وأشياء ماجد المهمة ؟!.

« ماجد » .. فى الصالون مع عمه الذى ينادى على رشا :

ـــ تعالى يارشا .. تعالى لقد عرفت ما هو الشىء المهم الذى يريدنى ميجور من أجله .. أنه أنت !!..

رشا صامتة تتحاشى أن تنظر إلى ميجور .. والأب يقول :

ـــ ما رأيك يارشا .. ميجور يخطبك منى .. وأنا قلت له إنك أنت صاحبة الشأن وخاصة وأنت فى مفترق الطرق الآن . وهذا الأمر سيغير من بعض الأوضاع .. هيه يارشا ماذا قلت ؟.. إن ميجور يطلبك ..

ـــ وأنا أرفض !!..

ساد الصمت فترة .. حاول الأب أن يقطعه ويخفف من التوتر وقال : ليس من المعقول ياحبيبتى أن يكون ردك باترا متسرعا هكذا .. هذه الأمور لابد أن تأخذ وقتها من التفكير ..

ـــ لا .. فأنا أرفض الآن .. وحتى لو أخذت أىّ وقت للتفكير فسأرفض أيضا !

ميجور يتماسك ضاغطا أسنانه على بعضها وهو يقول :

ـــ أعطنى سببا معقولا للرفض غير الرجعية والتزمت !..

ـــ الرجعية والتزمت من أكثر الأسباب معقولية للرفض !

الأب يقول : انتظرى يارشا .. هل ترفضين من أجل الدراسة أم إن الفكرة نفسها مرفوضة .. وضحى لى ونحن نستطيع التقريب .. ..

ـــ لا أرفض من أجل الدراسة .. ولكن أرفض أشخاصا ..!..

لقد طلبنى الدكتور فؤاد الأمر الذى كنت سأخبرك به ياأبى .. وقد رفضت رغم كل ما يمتاز به لانى لا أحبه .

فقال الأب : وميجور لماذا ترفضينه أيضا ؟.. يا ابنتى أنا أخشى أن يظن الناس اننى لا أريدك أن تتزوجى . أنا أعرض عليك الأمر كله وعليك الاختيار ولا أريد أن أقف فى سبيل سعادتك .. فتزوجى إن رأيت الزواج سيسعدك أكثر من مواصلة الدراسة .

ـــ لا يا أبى أنت لا تقف فى سبيل سعادتى .. وسعادتى لا تتوقف على الزواج ، أما بالنسبة له ـــ وأشارت إلى ميجور ـــ فإنى أرفضه .. لإننى أيضا لا أحبه !!.

نهض ميجور واقفا وهو يقول :

لقد حَسَمْتِ الأمر بهذه الكلمة .. لقد قدمت كل ما أستطيع ولكن الأمر خرج من يدى .. وأرجو لك كل سعادة مع شخص تحبينه .. وإلى اللقاء !..

حاولت المربية بعد ذلك أن تسأل أو تشير ولكن رشا أوقفت محاولاتها بأن قالت :

إنتهى يادادة .. الكلام فى هذه الأمور انتهى . أنا الآن سأبدأ حياة جديدة منفتحة . سأسافر بعد أيام لأدرس وأصبح دكتورة فى الكمياء .. وأنت تحدثيننى عن الزواج والبيت والأولاد ؟!.

ولكنها مع والدها لم تستطع أن تقول هذا لإنه سألها بحنو :

ـــ رشا .. هل حقيقة إنك لا تريدين الزواج .. أم إن هذا من أجلى أنا ؟.. أنا ياحبيبتى أريد سعادتك قبل كل شيء . فإن أردت فسألغى كل شيء . وإبقىّ هنا وتزوجى ميجور أو فؤاد أو أى إنسان آخر تريدينه ..

ـــ سأسافر يا أبى وليس هذا من أجلك فقط .. فآمالك كلها هى أمالى أيضا . وسعادتى فى السفر والدراسة والدكتوراه .

ـــ هكذا أطمئن .. ولكن أريد أن أسألك : أحقيقة أنت لا تحبين ميجور ؟!

سكتت برهة .. ثم قالت :

ـــ نعم .. لا أحبه !!

ومع اقتراب وقت السفر توافد معظم أفراد العائلة والأصدقاء والصديقات .. حتى مصطفى أرسل بطاقة يتمنى فيها لها التوفيق . كل الناس قالت شيئا فى وداعها .. .. إلا هو ..

كانت فى أعماق نفسها تتمنى لو سأل .. لو ودعها ولو حتى بالتليفون !!

كانت تكذب وهى تقول إنها لا تحبه ..

إنه حُبُّ عمرها كله .. وصاحب التحكم فى خفقات قلبها .. والوحيد الذى يثير فيها الارتجافات الداخلية التى تحسها وحدها . إنها لا تعرف شيئا ولا متأكدة من شيء فى حياتها بقدر ما هى متأكدة أنها تحبه !

ولكنه جرحها .. أهانها .. يريد التحكم فيها . يريد أن يجعلها تابعاً له !. يريد أن يلغى رأسها .. عقلها .. ويمتلك مستقبلها .. آه لو خفف من غروره بعض الشىء !

حتى طلبه لها كان فيه غرور ورغبة فى السيطرة .. لم يقل لها فكرى أو حاول أن يفسر لها بعض مواقفه . ولكنه قال لها فى صيغة أمر : إلغى فكرة السفر !.. وقالى أنت تحبيننى !!.. منتهى الثقة يستخف بها ولا يقيم وزنا لقرارها !.

يظن أنى سأركع تحت قدميه وأقول له هذه هى حياتى أفعل بها ما تريد !! لماذا لإنى فتاة !.. يظن انه يتملكنى باسم الحب ؟!.. الحب الحقيقى يقوم على التفاهم وعدم الأنانية .

لكن ميجور أنانى ولا يريدنى أن أتفوق عليه .. لا يمكن أن يكون قد أحبنى بالفعل ؟.. هو يريد فقط أن يمتلكنى ليثبت لى إنى أقل منه . وإنه صاحب التصرف بمصيرى !..

وهذا لن يكون فأنا وحدى صاحبة مصيرى رغم إنى أحبه .. أجل أحبه !

وفى المطار كانت تبكى .. تبكى بدموع غزيرة حتى أن والدها قال لها :

ـ لماذا كل هذا الحزن يا ابنتى .. تأكدى من انى دائما سأحضر لك فلى أعمال كثيرة تربطنى بلندن وكنت أرسل من ينوب عنى حتى لا أتركك هنا وحدك ولكن الآن ومادمت هناك سأحضر عندك دائما .. وقد عرضت عليك أن تقيم معك المربية منذ البداية . ثم ابتسم وهو يقول :

ـ وميجور أيضا يسافر إلى لندن وغيرها كثيرا وأنت تعلمين .. فما الذى يحزنك ؟!

ـ يحزننى أن أفارقك يا أبى لقد عشت كل هذا العمر وأنت أمام عينى فكثير علىّ أن أتركك الآن .

ـ لا ياحبيبتى لن نفترق طويلا . فالهاتف بيننا

وسأحضر لزيارتك فكما قلت لك لى أعمال تربطنى بهذا البلد الذاهبة إليه .. ولذلك اخترتها لك للدراسة .

كانت تنظر للمودعين وكأنها تبحث عنه .. كأنها ستجده بينهم ولو من بعيد !.. لو كان يحبها لأتى ولو حتى ليراها دون أن تراه . ولكنه لا يحب .. وإنما يريد أن يتملك !

* * *

(٦)

في لندن .. كانت « رشا » تفتح حِسّها وذهنها لاستيعاب الأشياء . كل شيء مختلف .. كل الأماكن .. الجامعة .. السكن .. الناس !!

حقيقة لقد بهرتها لندن فلها طابع خاص !.. معظم بناياتها على طراز معين .. حتى اللون يكاد أن يتوحد ! أعجبتها أحواض الزهور خارج كل بيت والنظام والنظافة والترتيب .

رأت الساعة الشهيرة التى طالما سمعت دقاتها بالراديو .. وقفت تتأمل برجها العالى المشرف على التايمز وخلفه مبنى البرلمان الضخم .. الحدائق الممتدة .. حديقة الهايدبارك الشهيرة التى يمارس الناس فيها حرية الكلام والقول !.

ركبت قطار الأنفاق الذى يربط مسافات لندن الشاسعة ببعضها وقصدت منطقة الحدائق فى أطراف المدينة . لم تر أبدا مثل كل هذه المساحات الخضراء المتسعة !.. زارت المتاحف .. وأخذها العجب حقيقة فى متحف الشمع الذى يضم الشخصيات التاريخية والمشهورة وكأن الشمع يخفق بأرواحهم من دقة الصنع .. بهرتها هذه المدينة .

همست لنفسها : مدينة فخمة .. وسآخذ منها أفخم ما بها وهو العلم . ولم تكن تدرى تماما على أى نحو ستكون حياتها بها وهى تبدأ هذه الحياة بالسكن فى بيت الطلبة .

وكان بيت الطلبة يحوى عديدا من الجنسيات من الجنسين .. بينهم ثلاثة من العرب .. فرحت عند علمها بوجودهم لظنها أنها سوف تستأنس بهم .

منذ اليوم الأول رحبوا جميعا بها .. وأحاط الثلاثة العرب بها كأنهم يحمونها . وفى الجامعة تلقت أول دعوة للرقص من زميل لها .. واعتذرت عنها فنظر إليها الزميل وكأنه لا يفهم ثم هز كتفيه وانصرف عنها !

وبعد أيام كرر دعوته .. وكررت رفضها أيضا فسألها :

ـــ لماذا ترفضين دعوتى .. ألا أروق لك ؟!.

احتارت رشا بماذا تجيبه .. وهى تعلم أنها تتعامل مع شخص بفكر مختلف عن فكرها .. ولكنها ابتسمت وقالت :

ـــ أنت بلا شك إنسان لطيف .. ولكنى لا أخرج مع أحد للرقص .

رفع حاجبيه دهشة وقال :

ـــ ما معنى هذا ؟.. أمرتبطة أنت هنا بحبيب آخر ؟.

قالت : لا ..

قال : إذن لماذا لا تخرجين معى وقد قلت إنى لطيف ؟

ـــ لإنى لا أخرج مع أحد !

ظهرت الحيرة على وجهه وقال :

ـــ إذن أنت مرتبطة فى بلدك ؟..

فقالت : ولا فى بلدى أيضا .

ـــ إذن تعيشين بلا علاقات ولا صداقات ؟!.. ثم دقق النظر فى عينيها وقال : أأنت طبيعية ؟؟!.

تضايقت رشا من الحديث ولكنها قالت :

ـــ ألا تعرف اننى أتيت من بلاد الشرق .. وهذه البلاد لها قواعد وتقاليد تحكمها . نحن الفتيات فى بلادنا لا نخرج ولا نرقص ولا نصادق الشباب .

نظر إليها ـــ بيرو وهو يقول بلا حماس :

ـــ حقيقى .. .. ؟.

قالها بصوت خفيض وهو ينظر لها كما ينظر إلى مخلوق عجيب أتى من كوكب آخر !

ضايقها حديث بيرو .. وفى غرفتها كانت تحاول إعادة التفكير فى الأمر .. كيف ستعيش فى هذا المجتمع بما تعودت عليه ؟!.. إن ما كانت تحسب نفسها متطورة به هناك يبدو هنا تخلفا !!

كان وجود مصطفى معها فى جو الصداقة العادية لا يعجب الناس ولا يرضى عنه ميجور .. وأثبتت الأيام أن مصطفى نفسه لم يكن مقتنعا بالفكرة وأفشل مشروع الصداقة بينهما !.

وهنا ترى علاقة الشباب ببعضهم .. شاب وفتاة يخرجان معا ربما لأول مرة وفى نفس الليلة يكون بينهما علاقة جسدية بمنتهى البساطة !.. وهى التى لم تقبل قبلة مخطوفة من صديق على مدى سنوات .

فكيف تختلف العادات والتقاليد باختلاف المكان ؟!. وهل من الضرورى أن تتغير هى بتغير المكان أيضا ؟.. لا .. لا .. لا يمكن أن تتغير ستظل كما هى هنا .. أو هناك !.

وبينما هى غارقة فى أفكارها هذه سمعت طرقا خفيفا حذرا على الباب .. أنصتت فتكرر النقر على الباب .. فتحت وهى حذرة أيضا فقد كان الوقت متأخرا .

نظرت فوجدت باب الغرفة المجاورة يقفل بسرعة .. وكانت غرفة أحد زملائها العرب !!

عجبت وأجالت النظر فوجدت أمام باب الغرفة زجاجة عطر !!.. تُرى من الذى وضعها أمام غرفتها ؟.. أهذا الزميل العربى ؟.. ولماذا ياتُرى ؟ تركتها مكانها وأقفلت الباب وهى فى عجب شديد !!..

عادت الطرقات الخفيفة على الباب مرة أخرى . فتحت بسرعة فوجدت الطالب العربى .. جارها فى الغرفة المجاورة يمسك بزجاجة العطر ويقول مبتسما :

ــ لماذا لم تأخذيها .. لقد أحضرتها خصيصا لك تعبيرا عن اعجابى بك !!

نظرت إليه نظرات ساحقة وهى تقول :

ــ أهذا طريقة متحضرة لتقديم هدية ؟.. ثم لماذا تهديها لى ؟؟.. أتقبل الفتيات العربيات هدايا من الرجال بلا سبب ؟.. أم تراك نسيت الشرق وبلاد الشرق وأخلاق الشرق . حقيقة نحن فى لندن ولكن اسمى مازال « رشا

مراد شريف » وإسمك « مؤيد عبد الرحمن » .. فلماذا تهدينى هدية بهذه الطريقة الساذجة السخيفة ؟!..

والعجيب أن الطالب لم يرتبك ولم يعتذر .. وإنما نظر إليها بوقاحة وقال بصفاقة :

ـــ مُدعيّة .. ممثلة !.. غدا سنرى .. سنرى وسأذكرك !

أقفلت الباب فى وجهه وبعنف .. وأسرعت لابتلاع بعض الحبوب المنومة المهدئة ونامت لتنسى هذا السخف الذى وقع لها .

كان بيرو .. لا ييأس من أن يوجه لها دعوة كلما سمحت الظروف .. وبالطبع كانت ترفض فى كل مرة . ولكنه كان لا يغضب من رفضها ويكتفى أن يبتسم إبتسامة خفيفة متعجبة . وفى مرة قال لها : إذن أريد أن أسألك شيئا .. فهل تسمحين لى ؟!..

ـــ مادمت ليس لك أيّة علاقة .. فماذا تفعلين بجسدك ؟؟.

لم تستطع رشا أن تتجاهل المعنى .. ولكنها تنهدت وقالت :

ـــ هل كان من الضرورى أن تسألنى هذا السؤال ؟..

ــ ولم لا .. ألسنا أشخاصا ناضجين ؟.. ماذا علينا لو نناقش أية فكرة ؟.

ــ قالت : فعلا فالمناقشة أمر طبيعى .. على كل يابيرو جسدى ملكى أعطيه لمن أريد حين تجمعنى رابطة شرعية .

بيرو .. ينصت باهتمام .. وفجأة ضحك هازئا وقال :

ــ تحاولين التظاهر بأنك حرة حين قلت : أعطيه لمن أريد ــ ولكنك بسرعة تراجعت وقتما قلت : حين تجمعنى به رابطة شرعية !.. ياعزيزتى الحرية لابد أن تكون كاملة .. حرية الاختيار بين الخطأ والصواب . أنت تختارين الصواب ــ هذا إذا كان صوابا ــ لإنك مرغمة عليه .. وتبعدين عن الخطأ لأنك مرغمة أيضا على ذلك .. .. هذا طبعا إذا كنا سنعتبر تصرفك الطبيعى بجسدك خطأ !!!..

ثم صرخ بفضول كمن عثر على شىء غاب عنه :

ــ معنى هذا إنك مازلت عذراءً ؟

فهزت رأسها بالايجاب رغم احساسها بالحرج للكلام فى هذا الموضوع الخاص جدا .. فانفجر بالضحك .. يضحك .. ويخبط يديه ببعضها ويقول : عذراء ها ها عذراء .. ثم أضاف .. سأدعوك العذراء الصغيرة وسأخبر

كل الرفاق لاستعمال هذا الإسم .. ولعل فى هذا تكريما لك على هذه البطولة .

وقد كان وصار كل الأجانب ينادونها : العذراء الصغيرة .. واشتهرت بهذا الاسم .

حارت رشا .. فى كل ما يحدث حولها .. وفكرت فى كلام « ميجور » .. فربما كان يريد أن يكفيها كل هذا التخبط والحيرة . إنها حتى لم تسلم من الشباب العرب .. هذا السخيف الذى ألقى بزجاجة العطر أمام بابها .. وكلماته السخيفة .. حتى هؤلاء العرب لا يفهمون أيضا !!

لقد كفّ بيرو عن توجيه الدعوات لها وإن كان دائما يردد اسم العذراء الصغيرة حين يراها !

شخص واحد فى هذا المجتمع هو الذى أحس بها وقال لها :

ــ أنا أُقدر معتقداتك وأفكارك مادمت تدينين بها . فلكل بلد معتقداته وتقاليده وعاداته .. وعلىّ إن أردت أن أحتفظ بك وبصداقتك أن أحترم فيك أى معتقدات وإن كنت لا أعرفها .

وكان هذا هو « جينو » زميلها من أحد البلدان الأفريقية . أسود اللون أبيض القلب !!

وعلى ذلك كان هو أكثر الجميع قربا منها . فقد لمست فيه هدوءً واتزانا وتقديرا لمشاعرها . وكثيرا ما كانت تمشى معه فى طريق الجامعة الاخضر الجميل مسافات ثم تتركه إلى المنزل . وكان لا يظهر لها أىّ رغبة انه يريد أكثر مما تمنحه له .

كان يهتم بها ويسأل حين يراها: ألا تريدين شيئا منى ياصديقتى ؟.. فتطلب منه أن يصحبها أثناء سيرها .

أما فى الجامعة فقد أخذت مكانتها من الدراسة ونفوس الأساتذة وانتظمت بسرعة فى مسار الدكتوراه .

كانت مكتبة الكلية ضخمة هالتها فى أول الأمر ولكنها استطاعت أن تتخذ لنفسها مكانا ثابتا فى الجناح الخاص بالعلوم . وتبقى به بضع ساعات كل يوم .

كانت تجلس بين الكتب فتنسى نفسها تماما إلى أن تتذكر أنها تجهد عينيها أو تحس بالجوع فتنصرف . وكانت حين تهم بالانصراف تنظر إلى الكتب وكأنها تودع أصدقاءً لها وتقول لهم : إلى اللقاء غدا .. فقد اعتدت معاشرتكم اكثر مما تعودت معاشرة أهل لندن .. بل أنتم كل أهل لندن بالنسبة لى !

أما المعامل المجهزة الحديثة فكانت المكان الثانى بالنسبة لاستقرارها فى الجامعة . وكان لقاؤها فى المعمل بأستاذها الذى تولى الاشراف عليها متعة علمية كبيرة .

كان يهتم أن يبقى معها بجوار احدى التجارب ليرى بنفسه النتيجة . وكان يطالبها بملازمته باستمرار ولكنه كان أحيانا يشفق عليها فيسألها :

ـــ هل أرهقتك يارشا ؟.. فتقول لم آت هنا إلا لهذا العمل بروفوسور . فيقول بتواضع العلماء :

ـــ وأنا فى خدمتك دائما .

وبعد أشهر مَلّت بيت الطلبة ولم تعد تحتمل نظرات الشك والتساؤل حين تعود متأخرة بعض الشىء فى عيون زملائها العرب .. ولا حتى هذا الاسم الذى ينادونها به فى هذا المنزل خاصة .

أفضت بضيقها من بيت الطلبة ورغبتها فى الاستقلال ببيت لوالدها بالتليفون . فقال لها إن هذه كانت رغبته منذ البداية .. وإنه سيكلف أحد عملائه فى لندن بايجاد الشقة . وسيرسل المربية لتقوم على خدمتها وتقيم معها .

وبسرعة أعد كل شىء وإنتقلت رشا إلى بيتها الخاص .. ووصلتها مربيتها . وإستقرت تماما من هذه الناحية .

وبعد استقرارها أخذت تتحدث مع المربية وتسألها عن أخبار مصر ومن بها .

فأخبرتها إن ميجور ظل فترة لا يزورهم .. ثم عاد مع والدها يوما على الغداء وحين رحبت به قال لها الوالد :

ــ ميجور يادادة ابنى ولا يمكن أن يبتعد عنى .. وموضوع الزواج قسمة ونصيب . وإن ميجور أجاب أيضا وهو يضحك :

ــ هل كنت تظننى غاضبا ياعماه ؟.. وحتى لو غضبت كان غضبى منصبا على شخص آخر ولست أنت .

فرد عليه الوالد :

ــ اسمع ياميجور رشا جزء منى ومن أفكارى لقد دفعتها للتفتح ولكنك تعرف جيدا كيف تسير فى الحياة ولا خوف عليها من الوقوع فى الخطأ .

فيرد ميجور انه لم يخطر بباله لحظة أن رشا يمكن أن تقع فى الخطأ .. وإنما هو يعترض على بعض المظاهر التى يمكن أن تعرضها لأوضاع هى فى غنى عنها .

تسمع رشا هذا الكلام وتفكر فيه . إن كلامه به كثير من الصحة !.. لقد مرت بأوضاع ما كان أغناها

عنها !.. ولكنها على أى حال تجارب .. تجارب تستفيد منها حقيقة انها قاسية مريرة ولكنها مفيدة ..

لكن ميجور .. ميجور سيضيع منها . انها تعلم انها تحبه .. تحبه وتتمناه . ولكنها تعاند نفسها . تعاند نفسها فيه !

فى داخلها صوت يقول لها : لابد أن تكسبيه فهو الرجل الوحيد الذى يخفق له قلبك .. وفى هذا المكسب تغطية لأى خسارة أخرى !

تُرى ماذا سيفعل الآن بحياته ؟ أيظل هكذا أمْ انه سيسعى للارتباط بزوجة أخرى مادامت قد رفضته ؟..

وحين وصلت بتفكيرها إلى هذا الحد تألمت لدرجة أنها ضغطت على صدرها كأنها تخنق شيئا بداخله ..

أيعقل ؟.. أيتزوج إمرأة أخرى ؟.. وأنا ؟.. أنا التى قضيت العمر كله أحبه !!.. لقد نما معى حبه وصاحبنى فى كل مراحل حياتى فكيف أتركه .. كيف ؟!!!.

وفى يوم جاءتها برقية .. والدها سيحضر للزيارة وقضاء بعض الأعمال . فرحت رشا بهذا الخبر كما لم تفرح بشىء منذ وصولها إلى العاصمة الباردة .

ـــ وجودك يا أبى يدفىء هذا البلد . آه منذ زمن بعيد

لم أشعر بمثل هذا الدفء هنا .. كم أنا سعيدة لأول مرة اكون سعيدة هنا لو استطعت لقلت لك ياوالدى انتقل بعملك إلى هنا لتكون بالقرب منى لتدّعمنى فى هذه الدنيا الغريبة .

ـــ ماذا ياشوشو أمثلُك من يحتاج إلى دعم ؟

ـــ حقيقة يا أبى كنت أتمنى لو أنك بجانبى .. لاشك سأكون أفضل .

ـــ إذن ياحبيبتى لماذا رفضت الزوّاج ؟

ـــ رفضته لأنه سيعوقنى عن إكمال أحلامى .

ـــ معنى هذا إنك لا ترفضى الشخص نفسه ؟.. هل يؤثر عليك لو علمت أن « ميجور » قد تزوج بأخرى مثلا ؟!.

انتفضت انتفاضة داخلية ظهر أثرها فى رعشة يديها بفنجان الشاى الذى كانت تشربه .

حاولت جاهدة أن تسأل بدون أن يلحظ أبوها فزعها :

ـــ هل تزوج ميجور ؟!

ـــ نعم .. تزوج منذ أيام !!

صمت ممزق يجثم على صدرها ثم يخرج صوتها متحشرجا .

ـــ مَنْ ؟

ـــ فتاة من أسرة معروفة فى البلد .. كانت قد أنهت دراستها الثانوية منذ سنوات واكتفت بذلك وجلست تنتظر العريس .

كيف رآها ميجور .. كيف علم عنها ؟

ـــ أبدا .. أخبرته عنها إحدى سيدات العائلة فذهب للزيارة ورآها وأعجبته .. فتزوجها !

ـــ أيعقل ؟ أهذه طريقة ليتزوج بها إنسان مثقف متحضر ؟! كيف .. كيف ؟.. لكن يبدو وأنها تناسبه متخلفة مثله .. فتاة تنتظر العريس لابد وأن تكون متخلفة . لا تكفى الثانوية العامة لتفتح الفكر ورقيّه .. لا تكفى .. إنها .. .. إنه .. .. آه .

وانهارت رشا وهى تضغط على صدرها بعنف .. ..

ـــ ما بك يارشا .. ما بك .. أتحبينه إلى هذا الحد ؟!.. لم أكن أعرف .. لم أكن أعرف .. إذن لماذا رفضتيه ؟. لقد كان مجروحا متألما لرفضك له وربما كان هذا هو السبب المباشر لزواجه السريع .. لماذا لم تخبرينى ؟.. أنا لا أريد أن أحرمك من شىء تحبينه . لقد حققت لى أحلاما كثيرة ولا أريد أن يكون هذا على

حساب سعادتك . أنا أتسبب فى تعاستك ؟.. أنا يارشا ؟.

تتماسك رشا وهى تحاول التخفيف عن والدها .

ـــ لا والله يا أبى .. إنها أزمة بسيطة تعاودنى أحيانا .. إسأل داده تخبرك فقد لاحظتها منذ فترة ليس بسبب زواج ميجد .. ..

ولم تستطع أن تكمل وغلبها البكاء .. .. فأجهشت بالبُكاء .

احتضنها والدها فى صدره ووضع رأسها على كتفه وهو يهدىء منها .

ـــ لقد أسهمت أنا ياحبيبتى بشكل أو بآخر فى إبعادك عنه .. لقد رسمت لك طريقا منذ الصغر .. وخفت أنت أن يُخرجك الزواج عنه .. لم أكن أعرف . لو عرفت أن الحب سيعترض هذا الطريق لضمنت هذا التصميم الذى وضعته طريقا آخر يوازى هذا الطريق الذى رسمته سابقا .

كل هذا وهى تبكى .. ويكاد الأب أيضا أن يبكى وهو يهمس :

ـــ لقد حرمتك فرصة للسعادة .. ويا أسفى لذلك !

قضى الأب أياما فى لندن حاولت رشا فيها أن تتظاهر بالهدوء وتَقبُل الأمر الواقع .. ولكنها فى الحقيقة كانت تريد أن تنغلق على نفسها بكل ما فيها من ألم .

كانت تريد أن يرحل عنها أبوها أو تخلو من حولها الدنيا حتى تستطيع تأمل جراحها وأوجاعها .

وحين وقفت تودع والدها احتضنها وهو يقول :

ــ شوشو لا تجعلى اليأس والأسى يتغلبان عليك ولا تجعلى الخسارة مضاعفة . لقد خسرت هناك فلا تخسرى هنا أيضا .

قالت تطمئنه : لا تخشى علىّ يا أبى .. سأنهض مرة أخرى فهنا معقد آمالى كلها .. وإن اعترضتنى لحظات ضعف فهى لحظات مجرد لحظات قصيرة تمر وتتركنى كما أنا .

ــ وهذا ما أريده .. أن تكونى دائما أنت كما أنت .. وكما أعرفك .

* * *

(٧)

أسلمت رشا نفسها للرقاد بعد سفرْ أبيها . فقد كانت تتماسك فى وجوده حتى لا يحزن ولا يسرف فى لوم نفسه .

أما الآن فكم تتمنى لو انها ترقد .. ترقد طويلا ولا تقوم أبدا . وتعجب من نفسها . هل تفقد كل الأشياء أهميتها فجأة ؟.. أهناك أهم فى حياتها من الدراسة والتفوق ؟ والدكتوراه ؟..

كانت تحاور نفسها محاولة أن تقوم بعملية إيحاء داخلى .. سأنهض وأتماسك مرة أخرى وأنسى هذا المخلوق تماما وأواصل طريقى .. أعيش وأستمتع كغيرى .. لن أنغلق على نفسى فلم ينقص منى شىء .. ولابد أن أعيش .. ولأجرّب الحياة كما يحياها الناس .. سأخرج وأصادق وأدرس أيضا !!..

وحين استأنفت حياتها مرة ثانية كان شيء داخلها قد تغير . تحس برغبة فى الانطلاق مع محاولة اقناع نفسها انها تملك دائما زمام نفسها .

ستنطلق ولكن فى حدود .. حدود نفسها وشرقيتها .. وتعرف جيدا الشخص الذى سيقبلها كما هى إنه « جينو » .

زميلها الافريقى انه لم يحاول أبدا أن يكون معها اكثر مما تريد . فحين كانت تتمشى معه وتتوقف فجأة وتقول له : هذا يكفى . يقول لها : إذن مع السلامة .

لم يطلب منها أبدا طلبات خاصة . لم يحاول أبدا أن يدعوها للرقص أو السهر فهو يعرف أنها ترفض مثل هذه الدعوات .. .. انه معها دائما كما تريد .

ستحاول معه . فلا خوف منه ولن يتهور أبدا بشيء لا تريده .

قالت له : جينو .. أريد أن أذهب إلى المسرح .. أليس من العجيب أن اكون فى لندن كل هذه المدة ولا أشاهد مسارحها ؟

بدون تعليق وبدون حتى أن يظهر عليه انه استغرب طلبها يرد قائلا :

ـــ إذن نبدأ من هذا المساء .

ـــ وهو كذلك .

خرجت معه للعشاء أولا ثم الذهاب إلى المسرح . وعادت متأخرة اكثر مما تعودت . نظرات المربية تسألها فأجابت :

ـــ كنت فى المسرح .. وتعشيت أيضا فى الخارج . وحاولى أن تتعودى على هذا فلن أبقى أبدا فى البيت كأرملة حزينة . لقد قضيت كل هذه المدة فى لندن وليس لى بها إلا الكتب والجامعة .. أما الآن فستدخل أشياء جديدة فى حياتى رضيت أم لا .. ولا أريد أن تواجهينى عندما أعود بهذه العيون المتسائلة !

ـــ جينو .. لقد مللت المسارح .. أريد أن أذهب إلى أماكن أخرى .

ـــ اختارى أى مكان أذهب بك إليه .

لقد كان جينو كما تريد تماما . كان يخرج معها وهو يعلم أن لها تركيبة خاصة فصمم أن لا يبدأ بشىء إلا إذا أرادت هى حتى انه لم يلمسها أبدا طوال هذه المدة .. لم يمسك يدها !.. لقد كان وجهه الأسمر الجميل جامدا دائما .. وكثيرا ما سألت رشا نفسها : ألا يشعر جينو أنى فتاة ؟!.

الحقيقة انها كانت فى البداية لا تريده أن يشعر بذلك .. ولكنها الآن وبعد زواج « ميجور » تحتاج لمن يؤكد لها إنها مرغوبة .. وأنثى !!.

غريب عليها هذا الشعور !! لم تحسه طوال حياتها بل كانت مثل هذه المحاولات تضايقها . ولكنها اليوم تحتاجها .. تحتاجها بالفعل .

ـــ جينو .. أريد أن أذهب للرقص .. على انى لا أحب إلا الرقص السريع الإيقاع .. لا أحب التانجو أو الفالس ..

وكانت كاذبة بالطبع .. ولكنها كانت لا تريد أن تقترب من جينو اكثر من اللازم .

كانت تهتز أمامه وهو يرقص أمامها بجسده الممشوق ووجهه الأسمر الهادىء .

إن له ملامح محددة .. وعيونا سوداء عميقة .. ولكنه لا يملك هذه القوة الآسرة التى يملكها ميجور !!.

وعلى كل حال هى لا تحتاج لاكثر من وجوده معها . فلن يخفق القلب ثانية كما كان يخفق لميجور !

رقصت ورقصت .. وقد انتشت من النغمات الصاخبة فتمايلت اكثر واكثر فى رقصها . وقد فعل جينو

نفس الشيء وكأنه يملك قوة يضبط بها نفسه تماما على قدر ما تفعله .. وتريده هي :

أراحتها علاقتها بهذا الفتى الأسمر . فقد كان مريحا وأعطتها هذه الراحة دفعة قوية للعمل .

كانت تعمل وتبقى ساعات فى المعمل .. وتسجل النتائج وتتقدم فى البحث وتخرج وتسهر وترقص .

حياة طبيعية إذن .. .. ولكن .. آه من هذا النقص الذى تحسه .. شيء جائع فى داخلها !!.

تحس دائما أنها تريد أن ترتوى .. كأنها عطشى .. ولا تدرى تماما لأى الأشياء !!

وفى مرة وهى ترقص أمام جينو تلك الرقصات السريعة المجنونة ومع فورة الدماء الساخنة أحست أنها تريد أن ترتمى على صدره العريض !.. تمنت أن تلمسه .. نظرت إليه وجدت وجهه الهادىء فى مواجهتها .. ولكنه ثبت عينيه فيها كأنه يقرأ خواطرها كأنه يعلم تماما ماذا يريد !

مدت يدها بحركة تلقائية .. أمسك بها وجذبها بلطف إليه فى الوقت الذى هدأت الموسيقى فيه تعزف نغمات التانجو !

غرقت فى صدره . أسندت رأسها على كتفه .. ويدها غارقة فى يده وهو يضغط على يدها يدغدغ كل أعصابها .

أستراحت .. استرخت .. حاولت أن تحتمى به من كل غربتها ونقصها وقلقها ويأسها وتوترها .

النغم الحالم يُقرّب بينهما أكثر وأكثر . رأسه يقترب منها .. أنفاسه ساخنة وشفتاه تتلمسان وجهها .

تتمنى أن تبتعد ولكنها لا تستطيع .. شيء بداخلها يستجيب .. كل مشاعرها الداخلية تتصارع ذلك الصوت الذى يتردد فى همس : لا تدعى الرجال الغرباء يقبلونك !!..

أجل .. لا يليق أن تدع رجلا غريبا يقبلها ..

لقد قبلها « ميجور » فقط وهو ليس غريبا إنه حبيبها الوحيد الذى تتمناه ولكنها محتاجة .. محتاجة للرفقة لشعور الحب . تريد أن تشعر انها محبوبة وإنها تحب .. .. ولكن آه لو سكت هذا الصوت .. .. تدارى وجهها منه فى صدره وهو يرفق بها .. وهى تحاول اخماد هذا الصوت بداخلها .. وإذا بصوت آخر بجانبها يقول :

مدّعية .. ممثلة .. ألم أقل لك ؟!!.

أفاقت .. رفعت رأسها .. وقعت عيناها على وجه زميلها العربى .. زميلها فى بيت الطلبة .

وجهت رأسها إلى رفيقها فى الرقص وهى تقول :

ــ جينو .. يكفى هذا .. أريد أن أنصرف .

مرة أخرى رشا تعود إلى توازنها .

حين رأت جينو بعد هذه الليلة قالت له :

ــ جينو أنا أعلم تماما انك تفهمنى .. وأنت أعز صديق عندى فهل تعدنى أن تنسى ليلة أمس .. وأن تعذرنى عنها .. ولذلك نستمر فى علاقتنا أم انك لن تنساها وتحاول التصاعد بها ؟

ــ أنا حريص على صلتى بك مهما كان الوضع الذى تضعيننى فيه لذلك لن أفرض عليك شيئا ولا وضعا . يهمنى جدا أن تكونى مرتاحة فى علاقتك بى وألا أسبب لك قلقا .. وأعلم جيدا تلك الحصيلة التى تحملينها من عادات وتقاليد عشت بها طويلا واحترمها . لذلك أؤكد وأكرر : لن أفعل سوى ما تريديننى أن أفعل . ألم نتفق على هذا . سأنسى ليلة أمس . فأنت أغلى عندى من أى ليلة مهما كان بها !

أراحتها كلمات صديقها الأسمر .. أسمر الوجه أبيض القلب !

وانصرفت للدراسة . لم تمنع نفسها من الخروج معه للتنزه أو الذهاب إلى المسرح وأحيانا الرقص .. ولكن الرقص السريع فقط .

الأيام تمضى برشا وهى تتقدم فى الدراسة .. وأستاذها بجانبها يشجعها . هدأت ثورتها وعاد إليها توازنها . حاولت أن تنسى مصر وأحداثها . حاولت ألا تفكر بواقعة الزواج كثيرا .

وكان شعورها نحو ميجور قد تجمد ! بينها وبينه سنوات طويلة من المعاندة والمكابرة .

إنها تحبه .. هذه حقيقة لا تستطيع نكرانها .. ولكنه هو قد كابر طوال السنين . لم يذكر لها كلمة حب واحدة تهتدى بها إلى حقيقة شعوره . كان لا يشعرها إلا بالاستنكار والسخرية وكأنه كان مطمئنا إلى سيّطرته الكاملة عليها !

حتى طلب الزواج أتاها به بشكل مفاجىء وكأنه متأكد من قبولها وفقا لشروطه . أراد بالزواج أن يكبح طموحها ويقيدها فى مكانها لا لشىء إلا لإنه يريد ذلك !

آه لو مهد لطلبه هذا .. آه لو أشعرها بالحب قبل أن يطلب هذا الطلب .. ربما كانت الظروف قد تغيرت .

ثم إذ به يتزوج من أول إنسانة يصادفها !!.. إذن هي لم تكن شخصا مميزا ، أو مختارا عنده !.. إنما طلبها فقط لتكون زوجة لا لذاتها أو لكونها هي .. وإلا ما استطاع ببساطة أن يستبدلها بأخرى لا يربطه بها شيء ؟.. انها ورغم أنها رفضته لا تعدل به أيّ رجل في العالم !

لكنها كانت ورغم كل هواجسها الداخلية .. تتقدم في عملها !.. وانتظمت الحياة من حولها تماما .

واحترم الجميع طريقتها في الحياة . كانت تسافر وتتجول وتزور مناطق كثيرة وتزور المتاحف والمسارح والاماكن النائية مع الجامعة .. وقد تقبلها الجميع كما هي :

حتى زميلها بيرو أصبح ودودا لطيفا معها . وحين يلقاها يقول لصديقته التي معه : هذه رشا .. رفضت أن تكون — جيرل فرند لي — ويضحكون لذلك .

وبجانبها جينو في حدود الصداقة التي أرادتها .. قد يغيب عن ناظريها بضعة أيام .. ولكنه دائما يأتيها سائلا عنها مهتما بها .

مكالمات والدها تتوالى عليها .. دائما تجعل الصلة بينهما مستمرة . كان لا يهم مدة المكالمة .. المهم يكون على صلة دائمة معها . كان مثلا يطلبها ليحييها تحية الصباح أو يتمنى لها يوما سعيدا !

وكانت هذ المكالمات التليفونية تشعرها بالدفء فى هذه البلاد الباردة وكأن أباها لا يغيب عنها . ولكن فى كل هذه المكالمات لم يتطرق الحديث أبدا ولا السؤال إلى ميجور !!.

لم يذكره أبوها أبدا .. وهى لم تسأل عنه أبدا .. وكأن هذا اتفاق صامت بينهما .. ألا يتحدثا عنه .

ولكن والدها يخبرها فى يوم إنه قادم إليها وتظهر نبرة الفرح فى صوته وهو يقول :

ـــ أتعرفين حبيبتى من سيكون معى هذه المرة ؟.. إنه ميجور سيأتى معى !!

وينهى المكالمة قبل أن تستفسر عن أى شىء !

بقيت صامتة جانب التليفون إلى أن دخلت المربية تسألها عن سر سكوتها بعد المكالمة !

ـــ أهناك ما يكدرك ياحبيبتى ؟

ـــ أبدا يادادة .. أبى سيحضر .

— يا أهلا يا أهلا .. طوّل الغيبة علينا والله .. ولكن ما بالك هل حضور والدك يستدعى كل هذا الذهول ؟

— ميجور سيأتى معه !

— ميجور ؟!.. وإن شاء الله سيحضر زوجته .. أم يأتى ليعزينا فى حالنا ؟.. أم تراه طلق زوجته ؟!.

رشا تتضارب فى نفسها مشاعر كثيرة . « ميجور » سيأتى هنا تُرى أما زال مجاله المغناطيسى قادرا على ابتلاع كل الأشياء المحيطة ؟ أتقوى الإشعاعات الحرارية المنبعثه منه أن تدفىء الجو حولها كما كانت تفعل ؟.. أيتغلب حضوره على صقيع لندن وصقيع قلبها ؟. أما زال قلبها يخفق ويضطرب لمجرد رؤيته ؟.. هل سيرتج داخلها كله حين تقع عيناها عليه ؟؟

لقد كانت تشعر أن احساسها به قد تجمد . لقد جرحها ونزف الجرح ما شاء له الله أن ينزف إلى أن تجمدت الدماء على جانبيه دون أن يلتئم !.

وفى المطار كانت تقف بجهد جهيد .. حالة من الاعياء تنتابها كيف ستقابله ؟.. ولماذا أتى ؟؟

ولماذا يأتى بصحبة والدها بالذات وهو يعلم ما بها منه ؟..

إن والدها يعلم أن زواج ميجور قد أصابها فى الصميم .. فلماذا يأتى به لها الآن ؟.

تلاشت الأفكار من ذهنها وهى تهرع للقائهما .

الأب يحتضنها بشوق كبير ثم يتركها بعد لحظات وهو يقول :

ـــ يجب ألا أستأثر بكل الترحيب .. فهنا ميجور أيضا .. ..

رشا تتجه إليه :

ـــ ميجور .. أهلا بك فى بلاد البرد والصقيع .
أمسك بها بكلتا يديه وهو يقول :
ـــ برد وصقيع فى مكان أنت به .. .. لا يمكن ..
يقول هذا وهو يتفرس فى وجهها بشوق .. وعيناه ترسلان تعبير الحب والتأثر .

رشا تغرق نفسها فى كلمات الترحيب لتطغى على دقات قلبها التى كانت تخشى أن يسمعاها .

مازالت ترتجف أمامه !!.. مازال يملك هذه الخاصية التى ينفرد بها وهى القدرة على كهربة كيانها كله !.

وحده من دون الرجال جميعا يملك هذه القوة الآسرة بالنسبة لها !

تمنت أنها تستطيع إلغاء كل الأشياء سنوات العناد المكابرة رفضها له .. زواجه سفرها .. .. .. فليسقط كل هذا الآن وليتنى أرتمى على صدره حيث يلتهمنى ذلك المجال المغناطيسى وتحرقنى هذه الاشعاعات الحارة وأغيب عن الوعى تماما .

وعلى مائدة الغذاء كان الحديث يجرى هادئا دافئا بمشاعر الحب التى يبديها الأب ويكتمها ميجور وتفجرها المريبة .

رشا تحاول التماسك والصمود أمام كل قوة الاشعاع المنبعثة من ميجور .

بعد الغداء قال الأب :

ــ أدخل أنا لأستريح وأترككما تتحادثان فيما جئت من أجله ياميجور !

ــ أجئت من أجل حديث خاص بالفعل ؟.

تسأل رشا .

ــ أجل جئت من أجلك أنت .. فلى معك حديث توقف منذ سنتين .

ــ لا ياميجور .. لقد بترته أنت منذ مدة بحادثة زواجك .

ـــ ولكنى أريد الآن أن أحييه .. أن أعيده حيا مرة أخرى .

ـــ لكن كيف ؟..

لقد طلقت زوجتى !

رشا ذاهلة تردد :

ـــ طلقت زوجتك ؟!!.. لماذا تزوجتها ؟.. ولماذا طلقتها ؟! وأنا .. أين أنا من هذا كله ؟..

ـــ اسمعى يارشا .. لقد طلبتك للزواج .. ورفضت .. فتزوجت . ولكنى لم أنجح لإنى لم أكن أحبها مطلقا .. ولذلك طلقتها . والآن جئت أطلبك مرة أخرى فما قولك ؟

ـــ لقد لخصت الموضوع ببساطة شديدة وكأنه لا يرتبط بمصائر ولا بمشاعر بشر . تتكلم عن الحب وأنت لا تعرفه . تقول إنك طلقت إمرأتك لإنك لم تكن تحبها .. .. فهل تحبنى أنا ؟.

ـــ نعم أحبك .. ألا تعلمين ذلك ؟.

ـــ للأسف لم تشعرنى ولو لحظة بهذا الحب .. كنت دائما تسخر وتعترض على كل تصرفاتى .

ـــ يارشا أنا أحبك .. ولكنى أرفض الجانب المتحرر فيك !.. وقد جئت هذه المرة وأنا أحاول أن أنسى حياتك

هنا لمدة سنتين ! سألغى هذه الفترة من الزمن .. سأنساها وكأنها لم تكن !

أنا لا أحب تلك النزعات التحررية التى ينادون بها للمرأة . فالمرأة هى المرأة فى كل زمان ومكان . ولولا انك أنت أنت ما رغبت أن أتزوجك بعد حياتك منفردة فى بلاد غريبة لمدة سنتين . ولكن لإنى أعرفك جيدا .. فأنا أطلبك مرة ثانية لأنى أرغبك زوجة لى . ولأنى سأنسى سنتين من العمر .. ويكفى اننى سأحاول بالفعل التغاضى عن هذه الفترة !..

رشا تنتزع نفسها من وسط الذهول والدهشة لهذا الكلام وتقول وهى ترتجف من شدة الانفعال :

ــ ميجور .. كما هو .. الغرور والتسلط والرجعية !! تلغى وتضيف لحياتى وأنا يجب أن أطيع وأستسلم ؟!.

لقد فشلت فى حياتك والآن تأتى لتسرق نجاحى !! سنتان من عمر الزمن عندى لهما قيمة . لقد كانت تجربتى فيهما أغنى تجارب حياتى كلها . لقد استطعت أن أقيم التوازن هنا فوق هذه الأرض الغريبة وهذا قمة النجاح !..

لقد وقفت على قمة النجاح .. وفجأة تأتى أنت بكل ما فيك من عنجهية وغرور وتزمت وتقول لى : إلغى !!..

إلغى سنتين من كفاحك ونجاحك !!.. لقد دفعت ثمنا غاليا جدا فى سنتين من الزمان . دفعته من أعصاب وتوتر وقلق وخوف من الفشل وصمود ومقاومة .. وتغلب على ضعف .. كل هذا دفعته فى سنتين .. وأنت الآن تريد أن تحول كل هذا إلى عدم ؟!!.

بقيت لى سنة وأنال الدكتوراه وأتوج كل كفاحى هذا باختيارى الحر الناضج لما أريد .. إنى أقترب من تحقيق الحلم العزيز .. كيف أدير ظهرى لكل هذا لمجرد رغبتك فى الزواج منى ؟؟!.. لا يمكن .. لا يمكن .. لن أتركك تسلبنى نجاحى لتدفن فيه فشلك !

ـــ رشا .. احذرى كلماتك .. احذرى .. لا يغرك إننى لجأت إليك مرة ثانية . إن نجاحك هذا لا يعنينى فى شيء .. ولا أعترف به !!.

ـــ اختلف معك .. ولا أوافقك .. والحقيقة إن كل ما يجذبك نحوى هو ذلك النجاح !! لقد فشلت أنت فيما نجحت فيه أنا بالفعل وهو إقامة التوازن الداخلى .. التصالح مع النفس .. ترويض الجموح . أنت تعيش فى عصر حديث بروح قديمة . لك من الحداثة والحضارة مظهراها فقط .. أما نفسك وروحك ففى الظلام .. هناك .. لم تر النور بعد !!. لذلك تشتت نفسك بين القديم

والحديث .. لإنك عاجز عن إقامة التوازن بين أجزاء نفسك المظلمة وا لمستنيرة !

لقد فشلت مع زوجتك التى تمثل القديم .. وفشلت معى أنا من قبل لانى أمثل الحديث .. تعلّم كيف توائم بين نوازع نفسك باتقان وصدق إن كنت تريد أن تعيش سعيدا .

ـــ أفهم من هذا انك ترفضين .. وللمرة الثانية !؟!..

ـــ طبعا أرفض .. فنجاحى ـــ الّذى لا يهمك ـــ عزيز علىّ .. وإقامة التوازن الذى حققته عزيز علىّ أيضا .. .. أغلى بكثير من أى علاقة حب أو زواج !!.

ـــ كيف ترفضين وأنت تحبيننى ؟.. أنا أعلم جيدا انك تحبيننى .. علمت ذلك من إرتعاشة يديك .. وتورد وجنتيك .. من بريق عينيك . أليس هذا صحيحا ؟.. ألا تحبيننى بالفعل يارشا ؟.

صراع كبير فى صدر رشا .. تخفيه تحت الصمت . حب ورفض يتصارعان . لقد لمس وتر التأثر فى نفسها . إنه يعلم سرها .. ولكنه لا يعلم إلا ظاهره .. لا يعلم عمقه وغوره .. لا يعلم مداه الحقيقى . فلأعترف .. ..

ـــ نعم أحبك .. أعترف بذلك . ولكنه ذلك الحب الواعى المتبصر لا حب الهزيمة والتدمير . وكما ترفض أنت

فيّ الجانب التحرري .. أرفض أنا فيك الجانب الرجعي ..

ـــ أتعترفين بالحب ثم ترفضينني !.. ثقي إن هذه هي المرة الأخيرة حيث لا عودة .. لست أنا مَنْ أواجه بالرفض مرتين .. سيكون هذا آخر ما بيننا . حتى ولا تلك الصلة العائلية .. تأكدي رفضك هذه المرة يعني موتك بالنسبة لي !!.. لا تدفني الحب تحت ركام التحاليل الكيميائية !.. لا تضيعيه من أجل نجاح زائف . نجاحك الحقيقي معي .. ومع حبك .

يقول هذا وهو يقترب منها .. ولكنها تنبهت ..وهبت واقفة توقفه باشارة من يدها .

ـــ سأمضي في نجاحي ـــ الزائف ـــ وأرفض نجاحي الحقيقي معك كما تتصور .. ..

ـــ إذن ترفضين ؟!!.. انتهى إذن ما بيننا ولا أريد أن أراك بعد اليوم . لقد ضيعت علينا الفرصة الأخيرة !.

ويخرج مندفعا بغضب !

تلتفت رشا .. لتجد أباها واقفا بالباب .. وعلامات الأسى تعلو وجهه .. يقترب .. يحتضنها وهو يقول :

ـــ لقد اخترت إذن يا إبنتي .. الله معك .

* * *

(٨)

سنة باقية تنال فيها رشا الدكتوراه . سنة ستنقضى بأفراحها وأحزانها ! ولكنها لا تعرف فيها أفراحاً .. وإنما هى أحزان قلبها تتكاثف فى صدرها .. إنها تتحرك .. تخرج .. تسهر .. تدرس تبحث .. ولكنها حزينة !.

هذه المرة يختلف حزنها عن كل الأحزان السابقة . يختلف حتى عن حزنها لحادثة زواج ميجور !!

شعور بأنها فقدت شيئا غاليا .. شعور الفقد هو الذى يعذبها إنها تعرفه جيدا .. وتعرف قدرته على العناد . لقد قال : لن أراك بعد اليوم !

هو يحرمها حتى هذه الرؤية الممتعة ؟.. هل يحرمها من الاحساس بتلك الرجفة الداخلية التى تستولى عليها عند رؤياه ؟

لقد أدمنت هذا الشعور وأدمنت اندفاع الدماء فى عروقها .. كيف يحرمها كل هذا ؟.

إنها تتقدم فى الدراسة .. ومن تحقيق الأمل الأخير .. ولكنها فى قرار نفسها زاهدة فيه !!.

لم يعدله ذلك البريق وذلك الوقع الجذاب !
سأنال الدكتوراه وأعود دكتورة فى الكيماء .. ثم ماذا بعد ؟.. كان هذا السؤال يلح على عقلها ..

العام يسرع نحو النهاية .. وهى تغمر نفسها اكثر واكثر فى العمل . مكالمات والدها كما هى للاطمئنان والتشجيع والتحية . ولكنها تخلو تماما من أى إشارة إلى ما كان .

المربية معها أيضا بعطف وحب وكأنها فهمت نقاط الخلاف فلم تعد تتكلم عنه أو عن الزواج .. انما هى تلحظ حزن رشا وشدة إنغماسها فى العمل . وتحاول بقدر استطاعتها أن تهيىء لها جو الراحة والحنان .

إلى أن كانت نهاية العام .. وحصلت رشا على الدكتوراه بتفوق . وتقول المربية :

ـــ لم يبق لنا إلا العودة إلى مصر ياحبيبتى .

ـــ حقا يادادة .. ولكنى لا أريد العودة الآن !..

سأحاول أن أهنىء نفسى بالنجاح . أخرج .. ألهو بعض الوقت .. أتجول فى المحلات مكافأة لى بعد كل هذا المجهود الطويل .

فترد الدادة : إفعلى ما تشائين ياحبيبتى لتسعدى قليلا .

رشا تخرج .. تسهر .. ترقص تتجول فى المحلات .. ولكنها غير سعيدة ! وفى محادثة لوالدها يسألها هل هى مستمتعة بوقتها .. هل هى مستريحة فى تراخيها وتكاسلها فى لندن ؟

تخبره بأنها لا تستمتع بهذا الفراغ :

ـــ يبدو يا أبى انى تعودت على الشقاء . لذلك سألتحق بأحد المعامل هنا فى دراسة تدريبية عملية تمنحنى خبرة وتقدما فى مجالى .

وفى ستة شهور أخرى واظبت رشا على وجودها فى أحد المصانع تتدرب تمارس الحياة العملية . وكان فى هذا عزاء لنفسها فهى تحب عملها وتجد فيه نفسها وتحس بقيمتها وهى تمارسه .

انغمست فى المعمل بشكل أدهش القائمين على المصنع .. ولكنها كانت تهرب من نفسها .. من حتمية العودة إلى مصر !

وفجأة ملّت !.. ملت العمل والمصانع ونازعها الحنين لبلدها وأبيها ما الذى يبقيها فى هذه البلاد بعد أن نالت منها ما تريد ؟.

هذه البلاد لم تألفها ولم تحبها .. إنما كانت وسيلة .. وسيلة فقط لتحقيق هدف . وبعد أن تحقق الهدف ما الذى يبقيها فى هذه البلاد الباردة الغريبة عليها ؟!.

وفى مكالمة لوالدها أخبرته برغبتها فى العودة . وحددت ميعاد وصولها .

تلقى الوالد هذا النبأ فَرِحاً متأثرا فقد كان يعلم ان ابنته لا تريد أن تعود لأسباب . وانها مازالت ممعنة فى الهرب من فشلها فى حبها . أسعده خبر عودتها وكأنه وجدها من جديد . كان يخشى أن تضيع منه رشا فى هروبها المتعمد !

الساعة تدق الثانية صباحا .. قميص النوم الوردى ينسدل على الجسد الرائع الممدد فى استرخاء على المقعد الوثير فى شرفة حجرة نوم الدكتورة « رشا » .

عادت رشا من رحلتها البعيدة .. وها هى فى بلدها وبيتها .. ولكنها تعانى الأرق !.

منذ شهرين وهى هنا تعانى الفراغ وعدم الرغبة فى صنع أى شىء ! لم تسع للحصول على أى عمل . وتقول لكل من يطلبها للعمل إنها مازالت فى فترة استجمام من رحلة الغربة الطويلة .

الأب يرقبها فى إشفاق . يشفق عليها من هذه الوحدة التى تغرق نفسها فيها . ويشفق عليها من ثقل الملل الذى يحسه يحيط بها .

ورغم انها دائما مسترخية فى الحديقة تسمع الموسيقى وتنظر فى كتاب إلا إن الأب يحس أنها تعبة .. حقيقة تعبة !..

يشعر بذلك دون أن تشكو له .

وهو يعجب فقد تأكد انها تحب ميجور .. ولكنها رفضته مرتين .. فكيف استطاعت ؟؟!. إن ابنته هذه عجيبة بالفعل ؟!.

ولكن أما زالت ترفضه للآن بعد أن حققت كل ما كانت تحلم به .. أما زالت ترفض ؟!

ربما كانت موجة من العناد وانتهت .. ربما كانت الرغبة فى تحقيق الذات وتحقيق آماله هو شخصيا .. وقد تحققت فلماذا لا تسعد رشا مثل كل النساء ؟.

وفى يوم ضمتها مائدة الشاى .. فتح الحديث معها :

ــ إيه يارشا .. ماذا بعد ؟.. لقد حققت كل ما أردت أنا وما أردت أنت أيضا .. فماذا بعد ؟.

ــ يا أبى مازلت فى فترة الاستجمام .

ــ أعلم ولكن ماذا أعددت لنفسك .. كيف تخططين حياتك القادمة .. أين ستعملين ؟.. وأين فكرة الزواج من عقلك ؟.

ــ يا أبى فترة الاستجمام التى أعيشها تحول بينى وبين التفكير فى العمل والتخطيط له . أما فكرة الزواج فهى ستأتى عندما يشاء الله لها أن تأتى . أمْ تظننى أجوب الطرقات بحثا عن زوج ؟!.

ــ وهل مثلك ياحبيبتى من تبحث عن زوج ؟.. المهم أن تقتنعى بالزواج . أنا ياحبيبتى حين خططت لك أن تكونى دكتورة لم أقصد أبدا أن تأتينى بالدكتوراه وتعيشين عانسا بعد ذلك ؟!.

ــ عانس ؟!.. هل قلت عانسا يا أبى ؟..

ــ آسف يارشا .. أقصد وحيدة لا تتمتعين بما يتمتع به غيرك . لقد أردت لك الحصول على كل شىء .. الثروة .. العلم .. السعادة .. ولكنى أراك أمامى غير

سعيدة وهذا يقتلنى .. حبيبتى فكرى .. فكرى بقبول ميجور فأنت تحبينه .

خفق قلبها .. لم تكن تعرف عنه شيئا طوال هذه المدة منذ أن غادر لندن غاضبا وهى لا تعرف أخباره .. لم تسأل عنه أبدا .. ولا حاول أحد أن يخبرها عنه أى شىء . وكانت تتجنب أى طريق يؤدى إلى ذكره . ولو حتى أصغر معلومة لكى تجنب نفسها أىّ هزات نفسية .

وقد كانت متأكدة أنه سيتزوج مباشرة بعد ما كان منها وإصرارها على الرفض .

كل هذا مر بخاطرها فى ثوانٍ .. ووجدت نفسها رغما عنها تقول لوالدها :

— ميجور ؟.. ألم يتزوج ثانية ؟

— لا لم يتزوج .. وحاول الابتعاد عنى .. ولولا الأعمال المشتركة ما كنت رأيته .. إنى أراه على فترات متقطعة .. وفى المكتب بالشركة . فلم يأتنى زائرا أبدا بعد زيارتنا الأخيرة للندن !. وأنا لا أريد أن أضايقه ولكنى بالطبع أعرف كل أخباره .. وليس بينها خبر زواج للمرة الثانية . إنما هو مشغول هذه الأيام بإقامة مشروع مصنع على أرضه ليحقق اكتفاءً لمشاريعه .

لفتت انتباهها كلمة مصنع .. ولكنها سألت :

ـــ لماذا يقيم مصنعا الآن ؟.

ـــ انه رجل متخصص .. ولا ينقصه المال لإقامة مصنع يحقق له وجودا كبيرا فى دنيا الصناعة .. علاوة على مكاسبه وأرباحه .

رشا مع أفكارها ـــ أيعقل أن يقيم مصنعا من أجلى ؟ أما زال يفكر بى ؟ هل يقيم هذا المصنع على أمل أن أعمل معه ؟.. إذن فقد عرف الطريق الصحيح إلىّ . لو فكر فى ذلك لتوصل حقيقة إلى أول الطريق الصحيح إلىّ !.. آه لو كان هذا حقيقة . آه لو عملت معه وتزوجته !.. وعرفت انه مقتنع بى كقوة بشرية إلى جانبه لا يقتصر وجودى أن أكون تحفة جميلة فى البيت .

لقد حققت كل ما أريد .. فلو تقبلنى الآن كما أنا يكون قد تغير أو تنازل عن بعض أفكاره المتصلبة . وليته يتقبلنى كما أنا فهذا سيكون دليلا على انه فعلا يحبنى .

إن ميجور يستحق أن أكافح للحصول عليه .. فهو حبى الوحيد .. وليته يهتدى ويسلم بأن ما كان قد كان بالفعل .

الأيام تمرّ وهى دائمة السؤال عن تطورات مصنع ميجور لدرجة إن أباها سألها عن سر اهتمامها بهذا المصنع :

ـــ كنت أظن انك تهتمين بميجور كزوج لا كصاحب مصنع يارشا .. لو أردت لأقمت لك مصنعا .. والمصانع موجودة بطول البلد وعرضها وأنت مطلوبة فى كل مكان فما سر اهتمامك بهذا المصنع بالذات ؟!

ـــ يا أبى هذا المصنع هو بداية خطوات ميجور فى الطريق الصحيح إلىّ . وسنرى بعد وجود المصنع إن كان ميجور سيصلح زوجا لى أم لا ؟!

ـــ أول مرة لا أفهمك يارشا !!

ـــ ستفهم يا أبى ستفهم فقط تمنى لى أن يكون ما يدور فى رأسى هو الواقع فعلا .

ـــ أتمنى ولو انى لا أعرف ما هو الدائر فى رأسك ؟!

الدائر فى رأسى أمر حياة أو موت بالنسبة لى . ميجور هو الحياة وفقده هو الموت !

رشا .. تواصل الاهتمام بتتبع الأخبار لم تعد تسأل عن ميجور نفسه ولكنها تسأل عن المصنع والتقدم نحو بدء تشغيله .

إلى أن جاءها أبوها يوما يقول :

الأسبوع القادم سيكون حفل افتتاح المصنع يارشا .
وقد أرسل ميجور بطاقة دعوة لى كأىّ غريب !..

ولكن رشا قالت مندفعة :

ــ وأنا ؟.. ألم يرسل دعوة لى ؟..

ــ لا .. وإنما هى بطاقة دعوة تحمل اسمى أنا فقط !

ــ ولكنى سأذهب .. لابد أن أذهب .

ــ بدون دعوة يارشا ؟!.. ولماذا يتجاهلك ؟.. إنه يتعمد هذا التجاهل !

ــ لا بأس يا أبى فقد قدم ميجور خطوات نحوى .. وأنا كنت الرافضة ولذلك ماذا يضيرنى لو اتخذت خطوة للتقارب .

ــ خطوة ؟ أية خطوة يارشا ؟.. اتخطين إذا فى اتجاه ميجور ؟.. لكم أنا سعيد بهذا . أخيرا يا ابنتى تسعين نحو سعادتك .. .. أخيرا ..

ــ ألم أقل لك يا أبى إن هذا المصنع هو بداية الطريق الصحيح إلىّ ؟..

وفى حفل الافتتاح عقدت الدهشة علاماتها على وجه ميجور وهو يرى رشا تتقدم مع والدها !

أكتسى وجهه بتساؤل حائر مشتاق وهو يركز عينيه عليها وهى تتقدم مبتسمة !

ــ جئت بدون دعوة .. مبروك ياميجور .

ــ وهل تلزمك دعوة للحضور ؟.. أهلا بك على كل حال .

الأب يسلم ويهنىء ويبتعد حتى يمنحها فرصة التعامل معه .

ثبتَ عينيه فيها ..

ــ يا الله .. مازلت كما أنت صاحب التأثير السحرى . صاحب خفقات القلب ونبضات الحس !.. يرتج داخلى كله الآن تماما كما كنت أرتعش أمامك وأنا طفلة صغيرة .. .. ترى هل تحسّ برجفتى الداخلية هذه ؟. هل تحس بارتعاشتى بين يديك الآن ؟.

طال بهما الموقف .. اضطرت أن تقطعه وإلا خرت راكعة أمامه معترفة وضارعة !

قالت : أتيت لك معى بهدية !.

ــ أتعرفين شيئا ؟.. كنت متأكدا من حضورك !. ثم ضحك ولكن لم أتصور أنك ستأتيننى بهدية !

— مازلت كما أنت .. نفس الغرور والكبرياء والمعاندة .. على كل حال تأكدك من حضورى بدون دعوة يعنى أيضا أنك مازلت تذكرنى !.. أو كنت تتمنى رؤيتى .. ما رأيك ؟.. إن هذا التفسير يظهر أن الأمر يعنيك . كما يعنينى تماما .

— هل يعنيك الأمر الآن حقا ؟!.. ولكنه تماسك وأضاف :

— أين الهدية التى أتيت بها ؟.. وما هى ؟

— هذه هى .. ..

وقدمت له لَفّة أوراق صغيرة مربوطة بشريط من الساتان تناولها وهو يقول :

— ما هذا ؟.. أوراق !.. أىّ أوراق هذه ؟

طلب تعيين فى المصنع .. وكل مسوغات التعيين اللازمة .

— تعيينك فى المصنع ؟!

— نعم ما قولك ؟.

لحظة طويلة صامتة .. ناطقة بما فى نفسيهما . ترتسم على وجه كل منهما دخيلة نفسه .

رشا .. ضارعة .. راجية ينطق الحب بعينيها .. ترتجف من رأسها إلى أصابع قدميها مستسلمة تماما لما سيقول !

ميجور وجه ثائر غاضب محب .. راغب .. رافض .. ولكنها أمامه ضارعة مستسلمة . فرصة أخيرة للسعادة . إنه يريدها بكل هواجسها وأفكارها المجنونة .

وها هى تعود إليه بمحض إرادتها .. رافعة راياتها البيضاء ينطق وجهها وكيانها كله : أنا لك .. ولك وحدك .. خذنى ولا تضيّعنى !

لم يشعر إلا وهو يمد يده ليمسك بكتفيها يهزها :

ــ إذن تعملين عندى .. تحت رئاستى وإمرتى .. أتقبلين ؟

ــ أقبل .. أقبل مادمت إلى جانبك فى العمل .. وما دمت تعترف بوجودى . أعمل ولا يهمنى أن تكون رئيسا لى . المهم أن تعترف بى فى دنيا العمل .

ــ ألا يهمك إلا الاعتراف بك فى دنيا العمل ؟.. ألا ترغبين فى اعترافى بك فى دنياى الخاصة ؟.

ــ أتقبلنى فى دنياك الخاصة بعد كل ما كان من سفر وغربة وآراء ومعتقدات ؟!.

مرت لحظة أحستها رشا سنة قبل أن ينطق :

ــ نعم أقبلك بكل عنادك وتكبرك .. وأفكارك المجنونة !

إلتهمنى إذا أيها المجال المغناطيسى .. وسيطرى أيتها القوى السحرية .. فما أحلى خفق القلب .. ورعشة الاحساس ..

* * *

تمت

رقم الايداع ٥٦٤٠ /٩٢
I.S.B.N.
977-00-3638-2

مركز الدلتا للطباعة
٢٤ شارع الدلتا ـ اسبورتنج
تليفون : ٥٩٥١٩٢٣